عزف منفرد

يوسف إدريس



عَزفٌ مُنفَرِد

الطبعـة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : دار الشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

SHOROUK INTERNATIONAL: 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL 637 2743/4, TELEX SHOROK 25778G

يوسف إدريس



دار الشروق

حديث

تهمة لا أنفيها :

* * قالت الشائعات إن فترة المرض حولت فناننا الكبير إلى متصوف يرى الله فى داخله .. ثم جاءت كتاباتك الأخيرة شبه مؤكدة لهذه الشائعات ..

فماذا عن رد هذه « التهمة » ؟!..

ضحك وهو يقول :

ـ هذه تهمة لا أنفيها وشرف لا أدعيه . فالذى لايرى الله فى داخله ، ليس هو فقط غير متصوف أو غير مؤمن .. ولكنه غير إنسان بالمرة .. ولست من أولئك الذين يحبون أن يتحدثوا عما يؤمنون به .. فأنا فى داخلى معمل إيمان لايتوقف عن البحث والتنقيب، والتجريب والرفض . والعدول والقبول . معملى هذا غير ملتزم بإصدار نشرة دورية عن « أحدث » ما وصل إليه ! .

وأعتقد أن « الشائعات » صيغت بهذه الطريقة كى أبدو فى نظر الناس كأنى لم أكن مؤمنا بالله ، ثم آمنت به أخيرا بعد المرض .. لكن كيف وضعت « حيثيات » قضية خطيرة كهذه وأنا نفسى لا أعرف عنها شيئا ؟! .

بينى وبينك .. أنا لا أستطيع أن أضع إجابة محددة لهذا السؤال . لأنى

الماضى ولا فى الحاضر ولا فى المستقبل .. أنا لا أكاد أعرف من أنا .. أعرف الله ـ سبحانه ـ أو أعرفه للآخرين ؟.. كل ما أستطيع قوله فى هذا المضمار هو أنى أكون ـ فى معظم الأحيان ـ صادق الإيمان بالكلمة حين أكتبها وبالفعل حين أفعله ..

ترى .. هل أجبتك ؟!..

فلنستبعد حكاية الزعامة :

شغلت بتأمل طريقته فى الكلام .. هو أحد فنانينا الكبار الذين بمقدورهم أن يسيطروا على الكلمة المنطوقة .. أكثرهم تتجلى عظمة مواهبهم عندما يمسكون بالقلم. لكنهم عندما يتكلمون فلا فرق بينهم وبين سائر الناس ...

يوسف ادريس يتكلم بنفس البراعة التى يكتب بها .. رأيته مرة فى بيت رجاء النقاش « يحكى » لمن حوله عن مشكلة مّا صادفت أحد معارفه .. طريقة « الحكى » عنده تأخذ شكلا دراميا دون أن يقصد .. كان يقدم فى الحكاية أشياء ويؤخر تفاصيل ، ثم يكشف عنها شيئا فشيئا ـ والذين يجلسون حوله يحبسون الأنفاس .. وكلما توغل فى « الحكى » ظهرت مفاجآت جديدة ومشوقات .. كل هذه بطريقة عادية جدا وبلا جهد ، والسؤال الخالد : « وماذا بعد ؟.. » واضح على وجوه الجالسين.

إذن ـ قلت لنفسى لحظتئذ ـ أنت أمام قصاص بالسليقة .. من غير المعقول أن يعقد لواء الزعامة فى فن القصة القصيرة فى عالمنا العربى لإنسان

، ما لم يكن هذا الإنسان قد ولد ليكون قصاصا .

* * دكتور يوسف.. اتفق النقاد ـ وبما يشبه الإجماع ـ على زعامتك للقصة العربية القصيرة .. إلا أن الناقد الكبير جبرا ابراهيم جبرا يقول إن قصصك مبنية على « رؤية روائية » بحيث تبدو القصة وكأنها « رواية مكثفة » ومن ثم فهو يعتبرك روائيا لا كاتبا للقصة القصيرة .. وهل ثمة « دفاع » ؟!..

رفع كفه إلى أعلى وقال بلهجة المحتج :

ـ أولا فلنستبعد حكاية « الزعامة » هذه ، ويكفينا مايغص به عالمنا العربي من زعامات . !..

ثم أراح يده على المائدة وعاد إليه صوته الطبيعى :

ـ ثانيا أنا أوافق الأستاذ الكبير جبرا إبراهيم جبرا على مسألة « الرؤية » فالرؤية الروائية لاتختلف عن الرؤية القصصية القصيرة إلا إذا اختلف الإنسان الطويل عن الإنسان القصير ، كلاهما إنسان .. ولهذا فأنا أضحك عندما يقال هذا كاتب روائى وهذا كاتب أقصوصة . كلاهما كاتب روائى وكاتب أقصوصة كأن فى هذا نوعا من التعريف مع أنه فى رأيى نوع من اللاتعريف .. المهم فى الموضوع كله هو « الرؤية » سواء كان الشكل الفنى هو القصة القصيرة أو الرواية .. وعلى كل حال فإن القصة ـ بنوعيها ـ قد انفصلت تماما فى عصرنا الحديث عن جدتها وأمها .. أعنى عن الملحمة والحدوته .. صارت نوعا آخر جديدا له وظيفة أرق بكثير من « طريق الندامة » و « سكة السلامة » والموعظة

الحسنة .. لكن هذا موضوع يطول شرحه .. هو فى حاجة إلى بحث .. ربما كتاب ..

ماهية القصة :

* * قلت مرة إن القصة « فن دقيق جدا وخطيرا جدا .. ومتقدم جدا حتى على العقلية السائدة فى العالم اليوم ، والبشرية حتى الآن لم تكتشف « ماهية » القصة » .

هل نطمع فى شىء من التوضيح ؟..

نظر قليلا إلى سفينة بعيدة بدت لنا تصعد وتهبط فى خط الأفق قبل أن يقول :

ـ الفن باعتباره نوعا من التكوين البيولوجى للإنسان ، لم يكتشف دوره تماما بعد .. وأعتقد أنه لن يكتشف إلا إذا اكتشفت كل أسرار الحياة .

ولنتأمل الحقيقة البسيطة التى تقول إن النبات يحزن ويفرح ويستجيب للموسيقى وللحنان .. مادام هذا يحدث لأبسط أشكال الحياة .. للنبات .. فكيف الحال بالإنسان؟.. ألا تعتقد أن الفن يتخذ أبعادا أعمق ملايين المرات عند ذلك المخلوق الذى هو أرقى ما وصل إليه تطور الكائنات . ؟..

القصة ـ بالنسبة للفن ـ هى سلم التطور كله .. هى تقريبا ، أول فن يستجيب له الطفل .. ثم تظل معه فى رحلة الحياة يستجيب لها فى كل مراحل عمره ، حتى وهو فى قمة نضجه .

هذا النوع من الفن الذى يعمل على كافة هذه المستويات ، لابد طبعا أن يتضمن كافة الفنون الأخرى .. اللغة ، والموسيقى ، وإيقاع الحياة ، وتوهج الخيال وتغيير المكونات الداخلية الدقيقة فى الإنسان ، جمالية كانت أو فكرية .

القصة تحتل ـ فى الفن ـ المقامات الموسيقية السبعة ، ومن هنا فهى فن دقيق وخطير لم تكتشفه البشرية بعد .

وظيفتى مساعدة الآخرين :

* * هذا يقودنا إلى سؤال هام أدخلت نفسك فيه دون أن تدرى .. كنت تقول إنك أكثر ميلا إلى العزف على العاطفة البشرية ، وأقل حماسا للعقلانية المحضة على أساس أن التأثير على الوجدان يحدث أثرا أعمق من التأثير على العقل .. لكنك فى الفترة الأخيرة أوليت المقال عناية خاصة بحيث جعلته أشبه بالدراسة المركزة ، الأمر الذى شكل ـ فى رأيى ـ خطرا على إنتاجك الفنى من ناحية ويناقض قولك الأول من ناحية .. فما قولك ؟..

ما أن انتهيت من السؤال حتى رأيته يتجهم ويصمت صمتا تاما .. من ميزات فناننا الكبير أن مافى داخله يتضح على وجهه فى التوواللحظة .. بعد فترة ليست بالقصيرة خرج عن صمته :

ـ سؤالك هذا ليس هو الأول .. تلقيت رسائل كثيرة تطالبنى بالكف عن كتابة المقال كيلا أهدر موهبتى القصصية والمسرحية .. لكن هناك عدة قضايا فى

هذا الشأن .. القضية الأولى هى أن الكتابة ليست فقط شكلا فنيا .. والكاتب فى عصرنا الحديث هو المنبه لقومه .. المقلق .. الموحى .. هو الذى إذا نام الناس صحا . وإذا صحوا نام .. إذا انحرفوا يمينا اتجه يسارا . وإذا سدروا فى يساريتهم توسط أو أيمن .. إنه الضابط للحركة البوصلة .. العازف على الناى إذا كان للحكمة ناى .

القضية الثانية هى أننى لا أكتب بناء على تحديد دقيق لوظيفتى فى الحياة .. فلست أعرف لى وظيفة غير محاولة مساعدة الآخرين ليساعدونى .. وحين أرى عقل أمتى هو الغائب ، فلا أفكر لثانية واحدة فى أى شيء سوى أن اعتبر نفسى مجندا .. تماما كالمجند إجباريا فى القوات المسلحة للدفاع عن الوطن العقل .. أو العقل الوطن .. يجب أن تعرف أن ثمة هجوما رهيبا ـ وبأشعة ليزر على الأمة العربية لا أعنى الأرض العربية فقط ، وإنما أعنى العقلانية العربية .

عندما يكون عقل أمتى فى خطر ، فلتذهب جميع الأشكال الفنية القصصية ـ والروائية والمسرحية إلى الجحيم . إن الكتابة ليست هزلا .. وإذا كنا قد ذللناها وأسميناها أدبا أو فنونا جميلة ، فأعتقد أننا فعلنا هذا عن تخلف شديد فى إدراك ، ليس فقط ماهية الفن ودوره فى الحياة ، بل ماهية الحياة ذاتها وقيمتها .. الكتابة عمل خطير .. إنها العقل والوجدان والروح تنسكب على الورق .. وقد أدرك أعداؤنا هذا من زمن طويل. وتمكنوا من هزيمتنا فنيا وفكريا ، وسهل عليهم بعد ذلك أن يهزمونا عسكريا .. الهزيمة كانت إنسانيا أولا ، لأن الإنسان هو الذى يقاتل وليس سلاحه .. الجزء المقاتل فى الإنسان هو إرادته ، والكلمة الصادقة هى إرادة الانسان .. عندما أقول « الكلمة » فإنما

أعنيها بمعناها الواسع الشامل لكافة ما يحرك النبضة فى الكائن الحى ..

إنى أعتبر نفسى مجندا للدفاع عن عقلى وكيانى أولا ، لكى أدافع بهما عن عقل بنى وطنى .. وحين يصل الأمر إلى مرحلة الالتحام بالسلاح الأبيض وأنعزل أنا فوق السطح لأكتب قصة أسلى بها المحاربين ، أعتقد أن المسألة تصل عندئذ إلى درجة الخيانة .. أما عن المؤرخين ، فإنهم أحرار إذا اعتبروا ما أفعله هو العبث بعينه لأننى ـ كما يقولون ـ أهدر موهبتى القصصية والمسرحية فيما يسمونه كتابة المقالات .. ومن يدرى .. ربما لن يبقى منى ـ إذا بقى شىء ـ إلا مايقال أنى أهدره .

الحرام .. والحلال :

أثناء حديثه كانت عيناه تتوهجان .. ترسلان ذلك البريق الذى لاتجده إلا عند أولئك الذين وصفوهم بأنهم ملأوا الدنيا وشغلوا الناس .. ربما هو يمتازعن الكثيرين منهم بأن الكلمة عنده مقرونة بالفعل فى أكثر الأحيان .. وربما لهذا السبب تجده يركز على الجانب الإيجابى فى الضحية الإنسانية وفى أغلب أعماله الفنية ... وقلت لنفسى ، وأنا أرى توتره ، لابد من سؤال جديد ـ وبأقصى سرعة ـ لنخرج عن جو السؤال السابق :

* * سمعتك مرة فى إحدى الندوات تقول إن مشكلة « الخطيئة » مشكلة أجنبية غريبة علينا ، ومع ذلك نعالجها فى أعمالنا الفنية .. بينما المشكلة التى نقابلها فى مجتمعنا هى « الحرام » والفارق دقيق بين الخطيئة والحرام ، ولكنه أساس .. ثم دارت مناقشة جانبية فى الندوة نسيت

بعدها أن تقول لنا عن هذا الفارق .. ألا تعتقد أنها فرصة الآن لتكمل مابدأته ؟!..

ـ الخطيئة بشكلها المسيحى تتضمن أن الانسان كائن خاطئ بطبعه .. وقد جاء الإسلام ليغير هذا المعنى ، ثم طورت المدارس الإسلامية هذا التغيير إلى فكرة « الحرام » .. ومعناها أنه ليس هناك خطيئة أبدية ، ولكن هناك أفعالا حلالا وأفعالا حراما .. وهذا الفهم أكثر عدلا بالنسبة للإنسان وأكثر تحريرا لإرادته ..

لكن أغرب ما فى الأمر أن الديانة المسيحية ـ وفقا لتعاليم السيد المسيح عليه السلام ـ ترفع هذه الخطيئة عن كاهل الإنسان باعتبار أن السيد المسيح قد حمل عن البشر خطاياهم كلها ، بينما ارتدت المذاهب الأوربية المسيحية إلى فكرة أن الإنسان كائن خاطئ أساسا لتستطيع أن تحكم قبضتها على الناس .

١ ـ الشخصية العربية :

* * مادمنا قد تحدثنا عن « البشر » بصفة عامة فى مفهومين مختلفين ، فما قولك فى سؤال عن « الإنسان العربى » وحده ؟..

ـ أى سؤال ؟..

* * فى كتابك القيم « اكتشاف سارة » حللت الشخصية الألمانية والشخصية اليابانية .. قلت إن الأولى تتحكم فيها عقدة التفوق

بينما مركب النقص هو الذى يتحكم فى الثانية .. ترى .. ما أهم مزايا وعيوب الشخصية العربية فى رأيك ؟..

وقف ودار حول المائدة واقترب من جهاز تليفزيون الكازينو .. رفع السماعة وأدار القرص لمرة واحدة ثم أعاد السماعة إلى مكانها وجاء ليجلس بجوارى .. أشعل لنفسه سيجارة وقال بصوت هادئ :

ــ سأغادر الاسكندرية إلى الزقازيق غدا .. إن كنت ستسافر إلى القاهرة غدا ، تعال معى .

* * شكرا . سأقضى بضعة أيام بالاسكندرية .. لكنك قلت لى أنك ستقضى هنا عشرة أيام ؟..

ــ مللت .. لابد من السفر إلى الزقازيق ، ومنها إلى الريف .

هذا هو السر إذن .. كثرة الأسفار هى التى مكنته من التحرك فى عالم متسع .. من يراجع أعماله الفنية يدهش لتنوع هذا العالم وثرائه .. إنه يكتب عن القرية بنفس القوة التى يكتب بها عن المدينة .. أحيانا تجد أحداثه تدور فى « العزبة » الصغيرة وكأنه ولد فيها ، وأحيانا تجده يتحرك فى مدينة أوروبية وكأنه من أهلها .. وقطع علىّ أفكارى بقوله :

ــ الشخصية العربية تختلف عن الشخصيتين الألمانية واليابانية .. هى شخصية ــ كما يسمونها فى علم النفس ــ الاكتئابية المرحة .. تتردد باستمرار بين المرح والاكتئاب .. نحن لانحتمل الحزن طويلا ولانحتمل المرح طويلا .. فى حالة حزن اذا مرحنا ، وفى حالة مرح إذا حزنّا .

أهم عيوب الشخصية العربية هو التعقل .. نادرا ما تصاب بالجنون ... تكتئب حقا حين تسوء الظروف .. لكنها لا تجن .. لا تجد عندنا أحدا ينتحر مثلا .

هذا العيب نفسه هو الميزة .. نحن شعب عاقل جدا لأنه متوازن .. وهذا هو السبب الذى جعلنا نعيش كل هذه الآلاف السنين ـ وتحت أسوأ الظروف ـ دون أن تفقد شخصيتنا .. دون أن ننتحر .

* * ما رأيك فى أن نعود إلى الأدب كى يكون ختامها مسلكا ؟..

ـ موافق ..

* * ما الذى ينقص أدبنا ليصبح أدبا عالميا ؟..

ـ هذا السؤال أجاب عليه زميلى وصديقى الأستاذ الطيب صالح إجابة جميلة أوافقه عليها تماما .. العالم ليس هو العالم الكبير الذى يشمل البشرية كلها .. بل هو الذى يبدأ صغيرا ثم يتسع .. والمفروض فى الأديب أن يخاطب العالم الصغير .. عالمه .. فإذا نجح فى مخاطبة عالمه فإنه يكون بمثابة من نجح فى مخاطبة العالم كله ..

وأقول لك شيئا .. إن أهم مافى الأمر هو الصدق .. هل نحن صادقون حقا فى مخاطبة عالمنا ؟. إن صدقنا سنصل إليه .. وإذن .. علينا أن نحاول الوصول إليه أولا ، ثم نفكر بعد ذلك فى الوصول إلى العالم الكبير .

لقاء حافل مع دورنمات

حين كنت طالب علم أقرأ المراجع الطبية ، واقرأ أحيانا كتبا لأساتذة الأدب فى القرن التاسع عشر كانت صورة أولئك الأساتذة سواء فى العلم أو الأدب تأخذ عندى طابعا مبالغا فيه تماما ، كنت أتصور أن ذلك الرجل العظيم الذى باستطاعته أن يكتب هذا المرجع أو يحيط به ، بل أحيانا يكتشف ويخترع تلك المعلومات لايمكن أن يكون مثلنا أبدا ، وكنت لا أفعل هذا عن تصور رومانسى لإنسان خرافى أو من عالم آخر كتب أو ألف ، ولكن الكاتب أو العالم يعطينا فيما يكتبه خير ماعنده ، أو بالأصح معجزته الخاصة التى وصل إليها وحده ، وقياسا على هذا نتصور نحن أن كل شىء فيه ـ مثل إنتاجه ـ معجزة هو الآخر ومن مجموع تلك المعجزات التى تكوّن شخصه يتبدى لنا فى صورة أسطورية تماما بل إنى لأذكر أنى بعد أن أصبحت كاتبا وصدر كتابى الأول « أرخص ليالى » كنت مدعوّا إلى حفل فى إحدى السفارات ، ووجدت ضمن المدعوين الدكتور طه حسين يصطحبه سكرتيره الأستاذ فريد شحاته ، وكنت أعرف أن الدكتور طه حسين قد قرأ كتابى وأعجب به تماما ، وأنه أوصى المرحوم الأستاذ سامى داوود أن يخبرنى أنه يريد أن يرانى ، وهاهو ذا طه حسين أمامى لاتفصلنى عنه إلا بضع

خطوات ، وما علىّ إلا أن أذهب إليه وأسلم عليه وأقول له أسمى ، فلا حرج إذن ولا إحراج ، ولاداعى للوجل ، والرجل هو الذى يطلب لقائى ، ومع هذا لم أستطع أن أخطو خطوة واحدة تجاه الأستاذ العميد الذى قرأت له « الأيام » و « المعذبون فى الأرض » و « أديب » والذى كنت أضعه هو والأستاذ توفيق الحكيم فى برج فنى خاص أقول لنفسى إننى أبداً لن أستطيع بلوغه ، وهكذا مضت الحفلة وغادرها طه حسين ولم أقابله إلا بعدها بعام حين اصطحبنى المرحوم سامى داود بما يشبه الإرغام للقائه فى فيللته بالزمالك فى ذلك الحين .

تذكرت كل هذا ، وأنا فى طريقى للقاء فردريك دورنمات أعظم كاتب مسرحى معاصر ـ فى رأيى المتواضع ـ ذلك أنى حين دعتنى « البروحيلتسيا » وترجمتها « من أجل سويسرا » وهى الهيئة التى تشرف وتشجع وترعى الأدب والفن السويسريين ، وكان رفيقى فى الرحلة أستاذنا الدكتور لويس عوض ، جعلوا لنا برنامجين مختلفين ، فالدكتور لويس آثر أن يزور المتاحف والمكتبات والأماكن التاريخية ، وأن يعتكف بعيداً عن الخلق يتأمل كل ماقرأ عنه فى تاريخ سويسرا وأماكنها المشهورة حتى الصخرة التى كتب الشاعر الانجليزى بايرون قصيدة مشهورة بجوارها ، بينما كان اهتمامى الأول أن أتعرف على الناس : كتّابا وفنانين ، ومسرحيين من مختلف أنحاء سويسرا .

وهكذا افترقنا ...

وفى حفل عشاء صغير أقامه الكاتب السويسرى أدولف موشك وزوجته الكاتبة لزوجتى ولى ، وحضره عدد آخر من الكتاب ، أسرنى ذلك الجو الأسرى البسيط الذى يحيا فيه الكاتبان : زوجة وزوج ، ولم يخل الأمر من مداعبات

أطلقتها عن التناقض الكامن بطبيعته بين الحياة زوجا وزوجة وبين الزمالة فى العمل ، فكلاهما كاتب ناجح ، وحين انتهينا من العشاء ورحنا نتحدث جاءت سيرة « دورنمات » . وهنا وجدت حناجر الكتاب والكاتبات المجلجلة بدا وكأنها ازدردت لقمة كبيرة أوقفت الكلمات فى الحلوق ، وحين استؤنف الحديث استؤنف على هيئة كلمات متناثرة عن دورنمات ، فمن قائل : لقد ماتت زوجته التى كان يعبدها وتزوج بأخرى وهو عجوز هكذا ، ومن قائل إن وزنه قد زاد كثيرا وإنه قليل الحركة جدا ، ومن قائل إنه يعانى من السكر ، أخبار محزنة على طول الخط خاصة وقد كنت أتمنى أن ألقاه فى هذه الرحلة إلى سويسرا ، ولم أجد بّدا من أبوح بأمنيتى تلك لهم ، وجاءت الكلمات تترى تقول : إن دورنمات لايقابل أحدا ، إنه « سوبر ستار » الآن ولا يقابل أحدا ، كثيرون من مراسلى الصحف ووكالات الأنباء يحاولون لقاءه، ولكنه باستمرار يرفض لقد أصبح مغرورا تماما ويوشك غروره أن يقتله فى بيته المنعزل فى نيوشاتل وابتسمت فى سرى ، لكأننا فى القاهرة أو فى أية عاصمة عربية أخرى لارحنا ولاجينا ، إن آراء الكتّاب فى بعضهم البعض ، وإن اتخذت طابع « الموضوعية » حين تقال علنا ، إلا أنه حين يصبح الأمر مسألة نميمة وآراء تقال فى دائرة مغلقة ، فإن كل مستور من الآراء يظهر أو بالأصح كل مستور من الغيرة أو الحقد يطفو على السطح وينطق به اللسان ، ودورنمات كاتب موهوب جدا بالنسبة لبلد أوروبى صغير كسويسرا لم يعرف عنه إنتاج عباقرة الكتابة أو الموسيقى أو التصوير ، وقد أخذ دورنمات طريقه إلى العالمية بسرعة شديدة ، فهو يكتب بالألمانية ومن السهل ترجمته ، فقد كتب أول مسرحية له اسمها « الأعمى والشهاب » عام ١٩٤٨ ، وبعد عشر سنوات بالضبط كانت مسرحيته

الثانية « زواج مستر مسيسبي » تقدم فى برودواى فى نيويورك عام ٥٨ ، ناهيك عن مسرحيته المشهورة جدا زيارة السيدة العجوز التى كتبها عام ٥٦ « وعمره وقتها ٣٥ عاما » وقدمت أيضا فى نيويورك وفى كل عواصم الدنيا تقريبا وترجمت إلى العربية ، وقدمت هنا عدة مرات كان آخرها الصيف الماضى وإنتاج دورنمات فى المسرح ١٨ مسرحية ، فقد كتب أيضا علماء الطبيعة « وقدمت فى مصر من ترجمة الصديق الكبير أنيس منصور » الذى زاره وكتب عنه فى الستينات « ورروميلوس العظيم عن آخر أباطرة الدولة الرومانية ، وهرقل ينظف إصطبل أوجياس وفرانك الخامس ، وآخر حرب الشتاء فى التبت وهكذا كتبت ، وأيضا اقتبس مسرحيات لشكسبير وجوته وغيرهما تسع مسرحيات للآن ، كتبها دورنمات ، ولكنه أصبح بها أستاذ مسرح النصف الثانى من القرن العشرين ، ذلك أن هذا الرجل يتمتع بموهبة القدرة على خلق الأسطورة الحديثة التى يحرك بها الواقع الآسن ويجعل منه فنا عظيما « وسنأتى إلى هذه النقطة فى الحوار معه » .

ودورنمات كروائى يأتى من الدرجة الثانية من موهبته ككاتب مسرح ، وقد كتب عدة روايات منها القاضى والمحكوم عليه « عام ٥٥ » والشك « ٥٣ » والاغريقى يبحث عن الاغريقية « ٥٥ » واللعبة الخطرة « ٥٦ » والالتماس « ٥٨ » .

أجل مابهرنى فى دورنمات ككاتب مسرح هو قدرته على اختراع حدوتة مسرحية معاصرة ، بينما العادة جرت فى معظم كتاب المسرح أن يلجاوا إلى الميتولوجيا الاغريقية مثل أوديب وبيجماليون والكترا والذباب ، يعيدون كتابتها

برؤيا حديثة ومبتكرة ، أما أن « تخترع » أسطورة حديثة تماما ، منتزعة من صميم عصرها ومتناقضاته ، فتلك لابد موهبة من نوع فذ تماما .

ومن هنا يختلف دورنمات عن معاصريه من كتاب المسرح العالميين مثل ارثر ميللر وتينيسى وبليامز وبيكيت ويونسكو وموروجيك وغيرهم ..

ان لكل شيخ طريقته . هذا صحيح . ولكن هذا الشيخ نسيج وحده .

* * *

لم يفعل الحديث الذى دار بعد العشاء ، إلا أن ثبط همتى تماما فى لقاء دورنمات مع أنى لم أكن مشغوفا جدا بلقائه ، فقد علمتنى التجربة أن « سماعك بالمعيدى خير من أن تراه » ثم ان خجلى الريفى الذى لم يزاولنى أبدا فعل فعله فخفت أن أطلب من السيدة « زايفل » المسئولة عن زياراتنا موعدا مع دورنمات فتعتذر ، ولو بلباقة ، كدأبها مع كل من يطلب من الكتاب الذين يزورون سويسرا ـ هكذا قال لى الكتاب والكاتبات فى حفلة العشاء ـ

صرفت النظر كما قلت

ولكن أثناء زيارتنا ـ زوجتى وأنا ـ لمنطقة سان مورتيز ولقائنا بممثل البروهيلفسيا هناك الذى اتضح أنه من الشعب الرومانشى الذى يقطن فى منطقة جبال الألب . والذى له لغة خاصة وأدب خاص وحركة فنية ثقافية خاصة والذى لايتجاوز عدده المليون ، وبعد جولة فى قمم جبال الألب اصطحبنا المسئول لزيارة صديقة له وصديق يعيشان فى واد صغير يقع بين جبلين بالقرب

من سان مورتيز ، والوادى صغير جدا والأرض والبيوت فيه غالية الثمن تماما فلا يقل ثمن البيت فيه عن مليون فرنك سويسرى مع أنه لايتعدى أى بيت من بيوت الفلاحين الذين كانوا يقطنون ذلك الوادى من زمن غير بعيد .

دخلنا المنزل ، فهو بيت مثل بيوت الفلاحين فى قرانا مصنوع من الخشب ومزود بفرن للتدفئة ولإعداد الطعام ، كل مافى الأمر أن الأسرة لاتنام فوق سطح الفرن كعادتنا فى الأرياف ، ولكنها تنام فى الحجرة التى تقع أعلى الفرن مباشرة والتى تتكفل حرارة الفرن بتدفئتها طوال الليل والنهار ، وعلى كوب الشاى الذى أعدته ربة البيت ورحنا نرتشفه بنهم بعد الجولة الحافلة فى المناطق الجبلية الوعرة ذات الهواء البارد تماما ، عرفها المسئول بنا ، وعرفنا بها ، وذكر لنا أن أخاها يعتبر من أهم الناشرين فى اللغة الألمانية بسويسرا ، وهنا ، وفى التو ، قرنت بين الناشر وبين الكاتب وسألتها إن كان قد نشر شيئا لدورنمات فقالت : أجل ، قلت : إذن تعرفين دورنمات ؟

ـ بالتأكيد ..

أأستطيع أن أعرف منك رقم تليفونه ؟

ـ هاهو ذا ، ولكن ، لماذا ؟

وهنا ذكرت لها رغبتى فى لقائه والحديث الذى ثبط همتى .. إلى آخر القصة .

ولمحت التردد على وجهها مخافة أن أطلب منها أن تحدد لى موعدا معه فقلت لها على الفور :

ـ لاعليك ياسيدتى .. أنا لن أكلفك بالاتصال به سأقوم أنا بهذا وأجرب حظى .

وحين عدنا إلى الفندق فى سان مورتيز ، أخرجت الرقم وطلبته ، ورد علىّ صوت رجل يتحدث بالألمانى ، فسألته بالانجليزية :

ـ مستر فريدريك دورنمات ؟ !!

ـ يا .. يا « نعم بالألمانية »

ـ « مواصلا بالانجليزية » أنا أسمى فلان، وأنا كاتب مسرحى مصرى وأود لقاءك ليس لحديث صحفى ، ولكن لحوار حول قضايا مسرحية تشغلنى وتشغل كتاب المسرح المصرى والعربى ، أفهمتنى يامستر دورنمات ؟

ـ متى أستطيع أن ألقاك ؟

قال كلاما بالألمانية فناولت السماعة لمرافقنا الرومانيشى مندوب البروهلفيا وظل يقول : يا .. يا .. يا ..

وأخيرا نحى السماعة جانبا وأغلق فوهتها .

وقال بالانجليزية طبعا ، إن مستر دورنمات يرحب بلقائك يوم الثلاثاء القادم فى منزلة بنيوشاتل ، وهو يترك لك حرية اللقاء على الغذاء ١٢ ظهرا أو على مشروب بعد الظهر فى الثالثة ، فما رأيك ؟

ـ الثالثة يوم الثلاثاء إذن ..

وقد كان ...

وكان عجبى شديدا أن تم الأمر بهذه السهولة ..

* * *

قامت مدام زويفل المسئولة عنا بترتيب كل شئ ، آلة تسجيل ، كاميرا ومترجم يجيد الألمانية والانجليزية واللغه العربية حتى كان عليه أن يلقانا فى محطة نيوشاتل للقطارات فى الساعة الثانية بعد الظهر .

ومن أعظم الأشياء الموجودة فى سويسرا شبكة السكك الحديدية التى تحملك إلى أى بقعة من سويسرا رغم وعورة جبالها وكثرتها وتعدد أنواعها ، نوع لصعود الجبال ونوع للسهول ونوع دولى يحملك إلى أى مكان فى أوروبا والأهم من هذا دقتها الشديدة ، وقد كان علينا مرة أن نغادر سان مورتيز ونغير القطار الذاهب إلى لوشيانو فى محطة مّا لا أذكر اسمها . وكنا وحدنا . وسألت مدام زويفل عبر التليفون ، كيف سأعرف المحطة ، قالت : انظر فى ساعتك حين تصبح السابعة وثلاث دقائق استعد للنزول فالقطار يصل إلى المحطة فى السابعة وأربع دقائق ، وفعلا ، فى السابعة وأربع دقائق كنا نهبط من القطار على رصيف المحطة التى فشلت فى تذكر اسمها ، لكأنه نوع من التعرف على المكان بالزمان ، إن صناعة الساعات لم تنشأ فى سويسرا عبثا ، وأنا شخصيا لدى ساعة سويسرية دقيقة لا أحتاج إليها كثيرا فى مصرنا الغالية ، لم أحتجها تماما إلا هناك ، فخطأ فى نصف دقيقة قد يكلفك قطارا هاما يفوتك أو موعدا لقيام طائرة .

فى الثانية تماما كان المترجم هناك ، بالضبط فى بوفيه الدرجة الأولى واقفا على الباب ، ودون أن نتبادل كلمة كنا قد تعارفنا .

كان المطر قد بدأ يتساقط ، وما أن خرجنا من باب المحطة حتى أصبح سيولا ، وكان العثور على تاكسى فى هذا الجو مسألة صعبة تماما ، ووجدنا أن خير طريقة هى أن ننتظر مسافرا قادما بتاكسى لنأخذه ، وأفلحت الطريقة وسألنا السائق عن العنوان، فأكد أنه يعرفه ، وسار بنا فى شوارع خلت من المارة تقريبا إلى أن أصبحنا نسير فى شارع مواز لبحيرة نيوشاتل ، وبدأ السائق يعد ارقام البيوت ، وبدأ يبرطم ، فكل الأرقام موجودة إلا رقم منزل دورنمات .. المطر والبرد والشارع المتعرج كالجبل الملاصق له لا تلمح فيه أثرا لإنسان أو لحياة ، وتصورت أن السائق سرعان مايزهق وينفض يده ويعود بنا إلى المحطة حيث كنا ، ولكن يبدو أن الرجل أخذها مسألة تحدّ ، فمضى يطرق الأبواب بعضها يفتح له ويجيب بالتأسف ، وبعضها يهز رأسه علامة اللاعلم ويروح السائق ويجىء فى الشارع المتعرج الطويل ، وأخيرا جدا يطرق بابا نلمح من خلفه رأسا يهتز بالمعرفة ، ويعود السائق متهللا وكأنه أرشميدس يقول : وجدتها وجدتها ، وبعد دقائق نكون أخيرا أمام باب دورنمات .

فتحت لنا الباب سيدة شابة حسبتها أول الأمر زوجة دورنمات الجديدة ولكن اتضح فيما بعد أنها (شغالة) البيت ، ومن ممر ضيق نفذنا إلى حجرة واسعة منخفضة بضع درجات ، وكان دورنمات جالسا إلى مكتبه ، قام وتقدم ناحيتنا مرحبا ، ومسلما .

الرجل فى تمام صحته ، قصير القامة ، فى الخامسة والستين يبدو نشط الحركة ، ليس سمينا أو زائد الوزن كما قالوا ، ولا يمشى على عكاز كما زعموا أشيب الشعر يضع منظارا، على وجهه آيات ترحيب صادقة ، ترحيب متواضع أشد ما يكون التواضع .

ولم يكن دورنمات أول كاتب ملأت شهرته الآفاق أقابله ، فمن قبله لقيت سارتر وايليا أهرنبورج فى النمسا ، وارثر ميللروجون إيدابك وسول بيللو من أمريكا ، وكل منهم كنت أحس لديه بكمّ ما من الشعور المغتربة للذات وبالذات ، إلا هذا الرجل الذى بدا لى شيخا صغيرا طيبا ، فيه من ملامح الطفولة أكثر مما فيه من ملامح الشيوخ .

كان حائط بأكمله من حجرته مصنوعا من الزجاج ويطل من علٍ على بحيرة نيوشاتل والجبل المنحدر إليها ، مكان عمل جميل جدا لفنان رسام وكاتب معا .

رحت أتأمل الرجل ، هذا هو دورنمات إذن الذى خلبت أفكاره لُبّى وجعلتنى أتساءل عن كنه ذلك الكاتب المسرحى الذى (يخترع) تلك الأفكار .

ـ أستاذ دورنمات .. أنا شديد الإعجاب بمسرحك لسبب قد يخالفنى فيه الكثير من نقادك ، فنقادك يشيدون بك لأنك أحللت الصدفة محل القدر الإغريقى القديم ، وجعلت التفكير العقلانى فكرة فى أحيان كثيرة موجات من العبثية واللامفهومية ، وفى مثل هذا الجو غير المعقول لا يمكن وجود الأبطال ويقولون إنك حطمت النظرة المنمقة المرئية للعالم المتمدين بما أدخلته عليها من النظرة النسبية للحقائق ، وفى مكان البناء السليم المتكامل والقوانين الأخلاقية المطلقة ، فى مكان هذا حلّت بيروقراطية المجتمع الحديث لتضع رؤيا عينية للكون حيث يستحيل فيه الإنسان ومأساته إلى سخرة (فارس) اجتماعية نقادك يقدرونك لهذا ، ولكنى معجب بك لسبب آخر تماما .

أجاب دورنمات بابتسامة ماكرة : أى سبب ؟

قلت : لأنك كمسرحي ، خالق لما أسميه الأسطورة الحديثة ، فالواقع كما هو، أنت تعرف وأنا أعرف لا يصلح بذاته كمادة مسرحية ، لابد من حيلة مسرحية يلجأ إليها كاتب المسرح ليجعل هذا الواقع إما أن ينقلب رأسا على عقب وإما أن يعتدل إذا كان مقلوبا لنستطيع أن نراه فى ضوء جديد تماما وبرؤيا جديدة تماما ، فمثلا فى مسرحية زيارة السيدة العجوز أنت تريد أن تتحدث عما يحدثه العامل المادى فى النفوس البشرية، وكيف يتسلط عليها ويغيرها ، غيرك كان يلجأ لعرض هذا الموضوع فى قالب درامي مهما بلغت درجة إتقانه فسوف يكون مباشرا ، أنت اخترعت قصة السيدة التى غادرت القرية منبوذة من حبيبها والتى عادت إليها بعد أن أصبحت غنية جدا ورصدت مليون دولار لمن يقتل لها حبيبها السابق . هذه (الاختراعة) المسرحية جعلتنا نرى الموضوع بطريقة مسرحية مثلى ، وجعلتنا نراه وكأننا لم نره من قبل مع أننا نراه كل يوم . أردت لقاءك إذن ومناقشتك لأننا فى العالم العربى نعانى ككتاب مسرح (وأنا منهم) لخلق هذه الاختراعات المسرحية المصرية والعربية الحديثة لنرى واقعنا وواقع العالم اليوم على ضوئها .

قال : إنه لشىء غريب ، ولكننا فى خلقنا للأسطورة الحديثة ، كما تسميها نجد أنفسنا فى النهاية وقد عدنا إلى أساطير الأقدمين ، إلى الميثولوجيا الإغريقية مثلا ، إن النظرة الكونية الشاملة الكاملة كانت منذ خمسين عاما مضت لا يمكن الوصول إليها على وجه الدقة ، ولكننا الآن نستطيع أن نقول إننا نقف على أرضية نظرة كونية ثابتة ، نحن لدينا اليوم فكرة شبه يقينية عن ماهية المادة .

قلت : إننى سعيد بسماع هذا ، فأنا أحتاج وأنا أكتب مسرحياتى إلى أن

أقف على أرضية كونية ثابتة ، وحين كنت أكتب مسرحية لى اسمها (الفرافير) احتجت أن أعثر على قانون واحد يشمل كل مادة الكون من أصغر ذراتها والكتروناتها إلى أكبر مجراتها .

قال : وهل وصلت إليه .

قلت : وصلت إلى ماتفضلت وأسميته أنت (شبه اليقين) فبإمعان التفكير وصلت إلى أن المادة فى حالة نبض مستمر ، تتجاذب مكوناتها ، من مكونات الذرة ، إلى مكونات المجرة ، وتظل تتجاذب إلى أن تصل إلى ما أسميته المسافة الحرجة لتبدأقوى التجاذب تتحول فجأة إلى قوى تنافر منفجر هائل ، وهذا القانون يشمل حتى العلاقات البشرية من تقارب وحب ثم تنافر وتباعد ، ومن العلاقات داخل المجتمعات ، وبين الدول ، وهكذا .

قال : وماذا دفعك للبحث عن ذلك القانون الجديد ، أولم تكفلك القوانين الحالية لتفسير السلوك البشرى .

قلت : إن القوانين الحالية لعلم الطبيعة والكيمياء والبيولوجى والانثروبولجى لم تكن لتسعفنى لتفسير العلاقة بين السيد والفرفور (وهنا تكفل المترجم بتلخيص مسرحية الفرافير التى يعرفها ودرسها ، وقد سعدت بهذا لأننى هنا أمام كاتب قد قرأت معظم وأهم أعماله بينما هو بالكاد لايعرف إلا أنى مجرد كاتب مسرحى مصرى فكان ضروريا أن يعرف شيئا عن إنتاجى) .

قال : أنا لا أستطيع أن أناقشك فى تصورك عن هذا القانون الكونى الواحد ولكنى شخصيا أومن بقانون واحد آخر هو قانون الصدفة ، إن العالم الذى نحيا

فيه بما يحتويه من بشر ليس له قدر محتوم يسير إليه وينتهى بنهايته ، ولهذا نحن لايمكن أن نتنبأ بما سيحدث لهذا العالم غدا ، لأن العالم يسير بطريق الصدفة العشوائية ، ولايمكن التنبؤ على وجه الدقة بما سوف يحدث ، فالأمر متروك لقانون الصدفة المحضة .

قلت : هل تعتقد يا أستاذ دورنمات أن المسألة مجرد صدفة ، حتى لوكانت قانونا .

قال : نعم ، أنا أعتقد أن الحتمية ـ حتى التاريخية منها ـ قد استبدلت بالاحتمالية ، بمعنى أن هناك (احتمال) أن يحدث هذا الشيء أو ذاك .

قلت : ألا يمكن أن تكون الاحتمالية طريقا للحتمية ، أو بالاصح هل من الممكن أن تؤدى الاحتمالية إلى الحتمية ، (سألت المترجم ، هل سؤالى مفهوم ؟) قال المترجم : لا

قلت : بمعنى آخر الاحتمالية مهما كثرت فلها حدود ، فهل يمكن أن تؤدى الاحتمالية فى النهاية إلى الحتمية .

سألته هذا السؤال وفى خلفية تفكيرى مايقوله النقاد عنه من أنه نظرا لما أصابه من إحباط نتيجة لانعدام العدالة الكونية ، وثبوت أن الفلسفات كلها غير يقينية ، أصبح يؤمن أن البطولة فى العالم انحصرت فى تمرد الفرد المعزول ضد النبوءة الميئوس منها ، وعلى هذا الأساس بنى عملا من أعماله الفذة التى سنتحدث عنها فيما بعد وهو (التيه) .

قال : لنعد إلى قانونك الذى تصورته عن الكون (قانون النبض الكونى أو

التجاذب للتنافر) .أنا آخذ هذا القانون مأخذا علميا جادا أوبالأصح افتراضا علميا جادا ، فمن المعروف أن الكون الآن فى حالة تمدد (حسب نظرية اينشتين) أو ما نسميه مرحلة التنافر ، فهل هناك قوة داخلية فيه تستطيع أن تبدأ مرحلة التجاذب .

أسعدنى أنه عاد ليناقشنى فى افتراضى ويأخذه ذلك المأخذ الجاد .

قلت : إنه لايتحدد ـ حسب افتراضى ـ من تلقاء نفسه ، إنه يتحدد لأنه بالضرورة ينجذب أو تنجذب أطرافه إلى أكوان بعيدة أخرى ، بمعنى أن المادة الكونية كلها ـ من الذرات إلى المجرات ـ تتجاذب بنفس السرعة ، بل وتقطع فى انجذابها نفس النسبية من المسافة ـ إلى أن تصل إلى النقطة الحرجة فتنفجر متنافرة ثم تعود لتتجاذب وهكذا .

فالقوة أو القانون الأساسى ليس شيئا من خارج الكون، ولكنه كامن داخله ، التجاذب للتنافر .

قال : إنه احتمال وارد، بل هو فى الحقيقة تفسيرنا نحن الكتّاب أو افتراضاتنا عما يجرى داخل الكون ومادته . إن فكرة الكون نفسها هى تصورنا نحن عن الكون . إن فكرة جاليليو عن الكون كانت صحيحة فى عصرها تماما ، ولكنه لم يكن يملك الأدوات أو الأجهزة التى تمكنه من إثباتها عمليا والتأكد من صحتها ، وصحة أن المادة تدور فى حلقات وحول نفسها ، ونحن الآن عائدون إلى تصورات أخرى عن الكون ، وما الفن إلا تجسيد لتصورنا نحن عن هذا التصور .

قلت : لو أخذنا دورنمات حين بدأ يرسم ويكتب فى أوائل بداياته أعوام ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، وأخذنا تصوره للكون ، هل تغير هذا التصور ؟

قال : أنا كنت أدرس الفلسفة ، وكان اكتشافى للفيلسوف نقطة تحول فى حياتى فقد كان صاحب نظرية التلق وصاحب نظرية التفرقة بين التفكير والوجود ، وصاحب الرأى القائل بأن الإنسان يفكر فى الكون مستعينا بالمفردات البشرية التى يراها ويحيا بها ، وليس بالموجودات الحقيقية فى الكون بمعنى آخر هو لايرى ولايدرك حقيقة الكون ، ولكنه (يتصوره) على هيئة أشياء يراها من حوله ، وهكذا وصل إلى أن التفكير الرياضى والحسابى هو أنقى أنواع التفكير فى الكون ، فهى مجردات وأرقام (والأرقام أيضا مجردات) لاتحتك بالحقيقة من قريب أو بعيد ، إن حقائق الطبيعة لايمكن تجسيدها إلا بالرموز الرياضية والرياضة فقط ، وهذا فى حد ذاته يحدد تلك الحقائق الكونية تحديدا كبيرا .

وواصل دورنمات قائلا : إن الحرية الحقيقية هى فى إدراك محدودية القدرة البشرية على فهم الكون .

قلت : نعم فلقد جعلت الصراع فى مسرحيتى بين رغبة الإنسان العارمة فى التحرر من النظام الكونى (السيد) وبين قدرته المحدودة على الفكاك من أسر هذا النظام نفسه ، إذ لوفك منه تماما لفقد صفته البشرية ونظام وجوده .

قال : ولكن النظام ليس خارج الإنسان ، إنه داخل الإنسان نفسه .

قلت : ولكن كنت أتحدث عن الوجود الإنسانى فى هيئة جماعة بشرية

فالإنسان لايحيا بمفرده ، ولا يوجد مكون من مكونات الكون بمفرده أبدا حتى الذرات توجد فى مجتمعات ولابد من نظام يحكم وجودها الجماعى .

قال : أنت تقول إن الإنسان لايمكن أن يعيش خارج نظامه الإنسانى وأن النظام لايمكن أن يعيش خارج الإنسان ، فكيف عالجت هذه المعادلة المستحيلة ؟

قلت : بالصراع حول من يكون السيد : النظام : أو الإنسان .

وضحكنا ، طويلا ، وكثيرا .

دورنمات فى مصر

قبل أن نستأنف هذا الحوار مع دورنمات والذى سيقول فيه آراء عن الإسلام وعن إسرائيل وعن المسرح والفلسفة والفن وحتى عن نفسه ، قبل هذا أحب أن أقول للقراء خبرا ، إن دورنمات سيزور القاهرة فى نوفمبر القادم ، فبعد الحوار الحافل الذى دار بيننا قلت له :

ـ هل تحب أن تزور القاهرة ؟

وجدته يتردد .

فقلت إنها ليست دعوة رسمية ، إنها دعوة شخصية منى أنا ، أو بالأصح هى دعوة من مجلس إدارة جمعية كتاب ونقاد ومخرجى المسرح التى أتشرف بكونى مسئولا عنها ونائبا لرئيسها شيخ كتابنا المسرحيين توفيق الحكيم . إننى باسم هؤلاء المسرحيين أدعوك لزيارة القاهرة . قلت له هذا رغم علمى أنه يكره السفر ، ليس فقط إلى خارج سويسرا ، وإنما حتى إلى خارج نيوشاتل ، التى يقيم فيها ، وله سنون لم يسافر أبدا إلى الخارج ، ولكنى قلته اعتمادا على نوع من الفراسة الداخلية ، ألتقط وأحس بها الناس أو بما فى الناس بطريقة مازلت لا أعرفها ، تماما مثلما جاءتنى فكرة زيارته وأنا عند أخت ذلك الناشر فى أحد وديان جبال الألب .

وهأنذا لا أفاجأ . ـ وإن كان مفروضا أن أفاجأ ـ حين قال :

ـ إنى أتمنى زيارة القاهرة : فعلا ، وكذلك زوجتى ـ الجديدة طبعا ـ فزوجته السابقة التى عاش معها أكثر من ستة وثلاثين عاما والتى رسمها بأكثر من طريقة والتى كانت معبودته كما يقولون وتوقعوا أن يموت أو على الأقل يتوقف عن نشاطه الفنى تماما بعد أن ماتت . الذى حدث أنه تزوج بعدها من شابة ألمانية تعمل مخرجة فى شبكة التليفزيون التى تغطى منطقة أوروبا الناطقة بالألمانية. ألمانيا والنمسا والجزء الألمانى من سويسرا وبعض أجزاء يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا .

قلت : سيكون رائعا لو صحبتك زوجتك وأرجو أن نستطيع أن ندبر لها برنامجا خاصا باعتبار أنك ستكون مشغولا ببرامج أخرى .

قال : لاحاجة بك لأى تدبير ، فهى تعشق مصر ، وطالما صرحت لى بأنها تريد أن تصنع فيلما عن مصر ، وأعتقد أنها ستفعل ذلك إذا ذهبنا .

وجهت له هذه الدعوة حتى لو كنت سأدفع تكاليفها كلها من جيبى المتواضع الخاص ، فنحن فى مصر منذ زيارة سارتر للقاهرة بدعوة من مؤسسة الأهرام ومنذ زيارة جارودى بدعوة من الأهرام أيضا ، لم نحاول أن ندعو كاتبا أو مفكرا عالميا لزيارة مصرنا التى يحبها العالم بقدر مانضيق نحن ـ أحيانا ـ بها .

وحتى قلت لنفسى : لو وجدت المبلغ المطلوب كبيرا فسأحاول أن أقنع الأستاذ إبراهيم نافع بأن يقدم لى قرضا أو عونا أو تدفعه النخوة ليقول : بل الأهرام هو الذى سيتكفل بنفقات الزيارة .

ولكنى حين عدت إلى القاهرة ـ وطبعا لأسباب لايجهلها القارئ ـ لم أشا أن

أعرض أمر هذه الزيارة على وزارة الثقافة خاصة وهى مشغولة بالماضى تماما وترميمه ـ قابلت الدكتور ممدوح البلتاجى صدفة فى افتتاح معرض الكتب الفرنسية التى كتبت عن مصر والعرب والمسلمين منذ العصور الوسطى إلى العصر الحاضر ـ موضوع سأعود إلى الحديث عنه فيما بعد إن شاء الله ـ وزارات الثقافة والعلاقات الثقافية فى البلاد الأخرى مشغولة تماما بإقامة علاقات ثقافية وثيقة بين بلادها وبين غيرها من البلدان ، وبالذات بلدان العالم النامى ، وفى مقدمتها بطبيعة الحال ، قائدة هذا العالم الثقافى مصر.

لايكاد يمر شهر إلا وثمة معرض أو فرقة موسيقية أو فرقة مسرح أو رقص قادمة من الهند أوكوريا ، وبالذات من فرنسا ، إن الفرنسيين يقومون بنشاط ثقافى هائل فى القاهرة ، معهد آثار ، معهد لغة ، ترجمة كتب مصرية إلى اللغة الفرنسية ، معارض ، دعوات للكتاب لزيارتها والاحتكاك ثقافيا وفنيا بها مهرجانات أفلام ، مؤتمرات كان آخرها مؤتمرا للعلاقات المصرية الفرنسية مؤتمر حافل ، كان على رأس المشتركين فيه المفكر الفرنسى العظيم ، مكسيم رودنسون ، ذلك أن العلاقات الثقافية لم تعد فى عالم اليوم ترفا ، أو دعاية إنها هى الروابط الحقيقية التى تجذب الشعوب إلى حضارات الشعوب ، وبالتالى إلى فهمها والتعاطف مع سياستها وخطواتها إلى التقدم ، ومثل الفرنسيين هناك معهد جوتة بنشاطه الهائل ، ومعهد ليوناردو دافنشى الايطالى والمعهد البريطانى ينفق بسخاء على تعليم المصريين اللغة الانجليزية والثقافة الانجليزية ناهيك عن النشاط الثقافى الذى تقوم به السفارة الأمريكية والجامعة الأمريكية ، وكان تنافس هائل قائم بينها لخلب لب المصريين ثقافيا وفنيا ، وهذا هو فى رأيى التنافس الوحيد المفيد لنا تماما . وقد كان مفروضا أن تقوم مصر ـ أقصد الوزارات

والإدارات الثقافية الكثيرة المبعثرة بين وزارة الثقافة وإدارة العلاقات الثقافية بها ، وادارة العلاقات الثقافية بوزارة الخارجية ، والأخرى التى بوزارة التربية والتعليم أو التعليم العالى .. لا أعرف ، كان مفروضا أن توجد هذه كلها فى مؤسسة ثقافية واحدة للعلاقات الخارجية وللثقافة الداخلية أيضا ، كهيئة « البروهيلفيسا » السويسرية أو غيرها ، ولكن تقول « لمين » ؟ المهم ، قابلت الدكتور ممدوح البلتاجى وذكرت له عرضا عزمى على دعوة دورنمات وقبوله الدعوة فوجدته بحماس منقطع النظير يصرّ على أن تقوم هيئة الاستعلامات باستضافة الرجل الكبير ، وبمشاورات مع السيد صفوت الشريف وزير الإعلام تم الاتفاق على برنامج كامل للزيارة ، وحتى حين ذكرت الفيلم الذى تريد زوجة دورنمات عمله عن مصر لعرضه فى الشبكة الألمانية الأوروبية .

قال : إن إمكانيات الاستعلامات كلها ستسخر من أجل نجاح العمل .

وهكذا أرسلت هيئة الاستعلامات دعوة رسمية ـ عن طريق السفارة السويسرية فى القاهرة ـ إلى دورنمات بها برنامج مفصل واتفاق مع الثقافة الجماهيرية على عرض مسرحية لدورنمات مما سبق عرضه له فى القاهرة ، ولست أدرى لم الثقافة الجماهيرية ؟ ولماذا لايكون المسرح القومى الأب هو الذى يقدمها ؟ وتحدد للزيارة بالاتفاق مع دورنمات نوفمبر القادم إن شاء الله .

هذا هو الخبر .

ونعود الآن إلى ماكنا فيه فى الأسبوع الماضى ونتذكر الحوار حتى نحيط بالموضوع .

قال : إن الحرية الحقيقية هى فى إدراك محدودية القدرة البشرية على فهم الكون .

قلت : بالضبط ، ففى مفهومى أن الصراع الحقيقى هو بين رغبة الإنسان العارمة فى التحرر من أى نظام « بما فيه النظام الكونى نفسه » وبين قدرته المحدودة على الفكاك من أسر هذا النظام إذ لو فك منه تماما لفقد صفته البشرية ونظام وجوده كإنسان .

قال : ولكن النظام فى رأيى ليس خارج الإنسان . إنه داخل الإنسان نفسه .

قلت : ولكنى هنا أتحدث عن الإنسان ليس كفرد ، وإنما كمجموعة إنسانية كمجتمع . فالإنسان لايحيا بمفرده ، ولايوجد مكون من مكونات الكون بمفرده أبدا . حتى الذرات توجد فى مجتمعات ولابد من نظام يحكم وجودها الجماعى فالأصل فى وجود أى شىء هو وجوده الجماعى .

قال : أنت تقول إن الإنسان لايمكن أن يعيش خارج نظامه الإنسانى وأن النظام لايمكن أن يعيش خارج الإنسان . فكيف عالجت هذه المعادلة المستحيلة ؟

قلت : بالصراع حول من يكون السيد : النظام أو الإنسان ، وضحك وضحكت ولكنى أردفت : إننى اعتبر أن الإنسان إنسان بقدر تمرده على نظام وجوده وبقدر قوة تمرده تكون قوته كإنسان ، صحيح إنه تمرد ميئوس منه ، إلا أن الاستسلام الكامل للنظام ، لأى نظام موجود ، هو الاستكانة ، والسكون هو الموت

قال : (وكأنما يغير مجرى الحديث) رغم أن أرسطو يقول إن الإنسان كائن سياسي ، الا أنني أعتقد إن الإنسان كائن (ذكرى - أنثوى) وأنا أرى أنك لم تتحدث عن الرجل والمرأة باعتبارهما النظام الأساسي للمجتمع البشرى .

قلت : لو كان الرجل والمرأة وحدهما على سطح الكرة الأرضية لأصبح هذا هو النظام الإنساني ، ولكنهما لم يوجدا هكذا بمفردهما إلا فى قصة آدم وحواء ، هما موجودان باستمرار داخل مجتمعات مثلهما مثل أدق الكائنات .

قال : ولكن هذا كما قلت لك مجرد تصورنا نحن لوجود المادة فى هذه المرحلة من إدراكنا العلمى ، ولهذا فأنا أفضل النظرة الفلسفية لأنها تقوم على افتراض منطق للوجود ، وهى فى نفس الوقت ليست حقيقة علمية ، إنها خيال علمى واسع مثلها مثل الروايات والمسرحيات ، مجرد افتراضات وليست حقيقة علمية ممكنا إثباتها بالميكروسكوب أو التليسكوب .

قلت : أمعنى هذا أنك لاتعتقد أن هناك حقيقة موضوعية ، حقيقة ، موجودة خارجنا ؟

قال : هناك حقيقة ـ هذا لاشك فيه ـ ولكننا لاندرك إلا أجزاء من تلك الحقيقة . أىّ تلك الأجزاء ندركها ، هذا هو السؤال . بل إنه مهما كان تفكيرنا حتى لو كان تفكيرا عبثيا فنحن بالضرورة نمسك بجزء ولو ضئيلا من الحقيقة بالضبط كما لو كنا نمسك ببطارية كشافة نجول بها فى أنحاء غرفة مظلمة فلا نرى فى المرة الواحدة إلا أجزاء من محتويات الغرفة .

قلت : أو كما يقولون عن النملة حين لايمكنها أبدا أن ترى الفيل كله ، إنها ترى

نتوءات وأشياء بارزة وهضبات ، إنما لايمكن أن تدرك ـ أو حتى تتخيل إذا كان باستطاعتها أن تتخيل ـ أن هذه كلها تشكل كائنا هائل الحجم حيا اسمه الفيل .

ولهذا دعني أسالك يا أستاذ دورنمات سؤالا سوف يبدو كأسئلة اللقاءات الصحفية : ألا تعتقد أن الإنسان ، كتلك النملة كما قلنا ، تكتسب كل يوم بتكنولوجيتها واكتشافاتها وإدراكاتها المتقدمة قدرات أكثر بكثير من حجمها الصغير، بحيث أنه من الممكن لهذه النملة أن تكبر تماما ويكبر خيالها وتكبر عيونها حتى تصل إلى درجة تستطيع أن ترى الفيل فيلا فعلا .

قال : ممكن أن تكبر النملة فعلا وتكبر حواسها كما قلت . ولكن الفيل أيضا لن يظل كما هو ، إنه هو الآخر لن يظل نفس الفيل ، سيظل يكبر ويكبر .

قلت : فى سرى وله أيضا . هكذا يجيب الأستاذ المسرحى دورنمات ، وأضفت لنفسى : لابد أن جزءا كبيرا من موهبة الكاتب المسرحى أن يعرف كيف يسأل السؤال الصحيح ويعرف أيضا كيف يجيب ـ حتى على نفسه ـ الإجابة الصحيحة .

ولكنى كنت قد بدأت أتبين شيئا من ملامح ذلك الكاتب الداخلية ، فهو قد درس الفلسفة وعشقها ، وأنا قد درست العلم وعشقته ، وصحيح أن الاثنين طريقان للحقيقة مختلفان تماما ولا يتفقان إلا على النهاية الواحدة ، ولكنى ـ هكذا قلت لنفسى ـ أفضل طريق العلم ، ومن قبيل حب الاستطلاع حاولت بجدية خطيرة أن أدرس الفلسفة فلم يقنعنى أيهما بالمرة . أجل بدأت أتعرف على الكاتب الداخلى فيه ، ومن لمعات عينيه بدأت أنا الآخر ألمح علامات تعرفه علىّ .

قلت : كما قلت لك يا أستاذ دورنمات لقد قرأت بعض آراء النقاد عن مسرحك، ولكنى أنا شخصيا أعتقد أن أحدا منهم لم يكتشف خاصيتك الأصيلة وهى قدرتك عن طريقتك فى اختراع الفانتازيا والأسطورة العصرية لاختراق عالمنا الحالى بطريقة تعريه تماما. فهل أنت معى فى هذا ؟ وهل نستطيع أن نسمى مسرحك الفانتازيا « الخيالية » الحديثة .

قال : إن الفانتازيا جزء لايتجزأ من التركيب « العقلانى » للإنسان ، إن الخيال فى معظمه منطق أيضا . إن الرياضة هى المعادل المتخيل الموجود الممنطق ، ومع هذا فالرياضة أيضا فانتازيا لأنها تخيل للأشياء على هيئة أرقام أو رموز، إنك فى الكتابة تحتاج إلى اكتشاف الرؤية المتخيلة الأولية سواء أكانت رؤية عظمى أو غير عظمى ، ولكنها رؤية جديدة مختلفة . بعد هذا الكشف الأول تصبح عملية الكتابة للمسرح وكأنها لعبة شطرنج محسوبة خطواتها . ففى مسرحية مثل أوديب نجد الرؤية العظمى تهبط عليه على هيئة نبوءة من آلهة الأوليمب، تقول له إنه سيقتل أباه ويتزوج أمه مثلا. ويريد أوديبُ أن يتجنب هذه النبوءة أو الرؤية فيتجنبها بواسطة خطوات منطقية محسوبة مسرحيا أو تراجيديا ، كما تحب أن تسميها ، ثم نجد أننا قد وصلنا مع أوديب إلى نقطة لاتخضع للحساب ، لماذا يذهب إلى تلك المدينة « طيبة » التى فيها أمه وأبوه على وجه التحديد ، هذه المسألة تحدث صدفة إذ هنا لابد أن يعمل قانون الصدفة .

قلت : ولماذا لاتسميه قانون القدر أو الحتم .

قال : لأنه كان من الممكن ببساطة أن يذهب إلى مدينة أخرى . حتى لو أجريت عليه قوانين الحتمية كما تسميها ، كان من الممكن أن يختار أقرب مدينة

أو أجمل مدينة أو أشهر مدينة ، أما أن يختار « طيبة » بالذات فهذا أمر لايمكن أن تحكمه الا الصدفة والصدفة وحدها .

قالت : إنه أمر فى رأيى لم يحكمه قانون الصدفة ، ولكن حكمته إرادة المؤلف المسرحى الإغريقى الذى كتب أوديب الأولى .

قال : إن هذا الكاتب أيضا لم يكن يحكم نفسه وهو « يؤلف » هذه الصدفة .

قلت : إذن أنت معى أن هناك قوة أو دافعا أكبر من الصدفة هو الذى جعله يختار هذا الأختيار.

قال : ولكنه اختيار يفرضه العمل الفنى المسرحى .

قلت : ولكن الفن المسرحى ليس فى حد ذاته قوة تستطيع أن تفرض قوانينها أو مسارها .

قال : فى الحقيقة أننا نحن الكتاب لانعرف القوانين التى تحكم خلقنا للشخصيات والأحداث .

قلت : والمصادفات .

قال : والمصادفات .

قلت : ماذا عنك أنت ، ألم تحاول أن تتعرف على طريقتك التى بواسطتها تختار الأشخاص والأحداث والمصادفات .

قال : سأقول لك شيئا عن مسرحيتى « علماء الطبيعة » (وهى مسرحية فى مفهومها العام جدا تقول إن بعض علماء الطبيعة الألمان ادعوا الجنون ولجأوا إلى

مصحة أمراض عقلية خوفا من أن تنتزع منهم المعلومات عن القنبلة الذرية ويستعملها هتلر فى إبادة الجنس غير الآرى كله) استطرد قائلا : إن العلماء الأمريكان وصلوا مثلا إلى اكتشاف القنبلة الذرية لأنهم كانوا يعتقدون أن العلماء الألمان سيسبقونهم إلى اكتشافها ، هكذا كان اينشتين الذى كان قد هاجر إلى أمريكا وأبو القنبلة الذرية أوبنهيمر وغيرهما. وصحيح كان هناك تجمّع كبير من علماء الطبيعة النووية الألمان فى ألمانيا ، ولكنهم لم يكن فى نيتهم أن ينتجوا قنبلة ذرية أبدا، وأن هتلر لم يكن يحفل كثيرا بجهود العلماء فى الحرب ، وكان يسميهم « اليهود البيض » لأنهم كانوا فى معظمهم من تلاميذ وأتباع اينشتين اليهودى .

فى مسرحيتى « علماء الطبيعة » يلجأ أحد أبطالها لمصحة الأمراض العقلية لأنه يعرف خطورة المعلومات التى اكتشفها ووصل إليها ، وماذا يمكن أن يصنع بها هتلر وعصابته النازية ، لقد تجنب ما أراد تجنبه باللجوء إلى ادعاء الجنون ودخول المصحة . ولكنه فى المصحة يقع بين يدى طبيبة المصحة المتحمسة للنظام بنفس الطريقة التى يقع فيها أوديب « بالصدفة » فى يد أمه « طيبة » وهذا هو مايمكن أن نسميه « بالقدر » الذى لايمكن للإنسان أن يتجنبه .

قلت : يسعدنى هذا الحديث تماما يا أستاذ دورنمات ، فقد كنت أرى إنتاجك وأنا أقرؤه وأشاهده. مجرد نصوص مسرحية رائعة أرى واجهتها الخارجية فقط ، أما الآن فأنا أرى دورنمات الكاتب ، دورنمات الداخلى وهو يعمل وكيف يبدع فكرته ، أراه حتى وهو يحرك أبطاله بطريقة ميكانيكية رياضية محسوبة مقدما كلعبة الشطرنج ، ولكن لتسمح لى يامستر دورنمات أن أختلف معك فالأبطال ليسوا أشياء تخضع تماما لقوانين الرياضة والحساب ، إنى أعتقد أنك

تقلل من قيمة أبطالك بهذا الحديث . إنى أراهم كائنات حية نابضة ، أكثر حياة ربما من البشر العاديين، وهذا هو بالضبط المسرح ، إننا لانسمى الشخصية المسرحية « بطلا » عبثا ، إنه بطل لأنه من المحتم قطعا أن يكون غير عادى حتى لو كان رجل شارع ، أو على الأقلّ تكون عاديته غير عادية تماما .

قال : هذا طبيعى جدا ، إن الأبطال المسرحيين مجرد نظريات على الورق تتحول إلى كائنات حية على المسرح . وهذا عمل كاتب المسرح .

قلت : أم عمل المخرج ؟

قال : بما يشبه الاستنكار ، أرجوك لاتذكرنى بالنجوم والمخرجين ، إن تدهور المسرح الألمانى الحالى سببه ارتفاع تكاليف الإنتاج المسرحى من ناحية، ومن ناحية أهم هؤلاء المخرجون النجوم فكل مخرج منهم يريد ان يكون هو « نجم » العرض المسرحى، وأن يحبس الجمهور رغم عدم ظهوره أنه هو النجم، وهذا بالطبع لايحدث إلا على حساب المسرحية والممثلين .

إنى أقصد أن أقول إن النص المسرحى يبدو كالنظرية على الورق ، ولكن الكاتب المسرحى الحقيق هو الذى يكتب بتصوّر أنه هو الذى سيخرج المسرحية وهكذا ينبض النص بالحياة على المسرح .

قلت : بمناسبة (النبض بالحياة) لا حظ يا أستاذ دورنمات أن العلاقة بين الرجل والمرأة فى مسرحك لاتحتل أهمية كبيرة فى مؤلفاتك رغم ماذكرته لى آنفا من أن الرجل والمرأة هما أساس النظام البشرى .

قال : ذلك لأن الموضوعات (التيمات) التى أتعامل معها لاتحتل فيها قضية

العلاقة بين الرجل والمرأة مكانا هاما . ولكن هناك أعمالا لى تحتل فيها هذه العلاقة مكانا بارزا ، ولكنى (وكأنما بعد تفكير) معك أن العلاقة بين المرأة والرجل ليست فى المحل الأول من اهتماماتى .

قلت : لماذا ؟

قال : لأنها ليست موضوعى الرئيسى ، أنا لا أعانى من مشكلة فى علاقتى كرجل بالمرأة . لقد تزوجت لمدة ٣٦ عاما وماتت زوجتى الأولى، وتزوجت مرة أخرى .

قلت : سمعت عن قصة حبك العظيمة تلك .

قال : أى قصة حب . الأولى أو الثانية ؟

ووقعت فى حيرة فقد ذكر لى الكتاب السويسريون سامحهم الله أنه كان يكاد يعبد ويكتب من أجل زوجته الأولى، أما الثانية فلم يأت لها ذكر بالمرة إلا أنها أصغر منه عمرا كثيرا . وها هو الرجل يؤكد أن القصة الثانية احتلت مكانة قصة استغرقت ستة وثلاثين عاما فى بحر عامين أو أقل .

قلت : تقول يا أستاذ دورنمات أنك لاتهتم بعلاقة المرأة بالرجل لأنك رجل سعيد فى حبك وفى زواجك ، أمعنى هذا ألا نكتب إلاّ عن المواضيع التى لاتسعدنا .

قال : وهل كتب كاتب عن علاقة حب سعيدة ، إننا لانكتب عن العلاقة بين الرجل والمرأة إلا إذا كانت مأساة . وأنا لا أخترع مآسى لا أحسها . وليست علاقة الرجل بالمرأة مشكلتى .

قلت : إذن ماهى مشكلتك يا أستاذ دورنمات .

قال : مشكلتى أننا نعيش فى عالم جميل جدا، أو بالأصح ممكن أن يكون جميلا جدا ، ولكنه فى حقيقته قبيح جدّا جدّا .

قلت : (وأنا أتلفت وأرى المنظر من حجرة مكتبه ومرسمه لوحة عبقرية تظل على بحيرة، كأنها من بحيرات الجنة والبيت والمدينة والجبل وكل شىء جميل جدا) أنا لا أرى عالمك هذا قبيحا أبدا يا أستاذ دورنمات ، فكيف تحس قبح العالم الخارجى وأنت هنا فى كل هذا الجمال .

قال : (ضاحكا) فى الحقيقة أنا كنت أتحدث عن قبح الأفكار السائدة فى عالمنا . إن دنيانا الحاضرة هى مصحة كبرى للأمراض العقلية فى نظرى ، إن مسرحيتى الجديدة (مثلها مثل علماء الطبيعة) تدور أيضا فى مصحة أمراض عقلية حيث يقوم كل مريض عقلى بتقمص شخصية تاريخية مّا داخل المصحة فأحدهم يعيش كنابليون ويتصرف ويفكر مثله ، وهناك مريضة تتوهم أنها جان دارك ، وتندمج إلى درجة أن تحس أنها مثل (جوديت) التى ورد ذكرها فى الأساطير وتحاول أن تعالج نابليون من تقمصه بالنوم معه كما فعلت جوديت . وهناك مريضان يتقمصان شخصية ماركس ، أحدهما ماركس كما يحب أن يراه الروس والآخر ماركس فوضوى ، وهناك ماركس ثالث لايظهر أبدا وهو الوحيد الذى قرأ رأس المال فى (المراكسة) الثلاثة .

قلت : لقد حاولت قراءة رأس المال عدة مرات ، ولكنى كنت أتوقف فاشلا .

قال : حتى لينين نفسه لم يقرأه كله ، بل أعتقد أن ماركس نفسه لم يكتبه كله ولكن (انجلز) ساعده فى كتابته . ومن المضحك أنهم قد وجدوا أخيرا خطابا

أرسله الناشر الذى كان قد تعاقد مع ماركس على نشر كتاب رأس المال وتأخر ماركس فى تسليم أصول الكتاب وخطاب ينذره فيه الناشر بأنه إذا لم ينته من الكتاب فى بحر شهر فسيعهد إلى غيره بكتابته .

قلت : وتصور لو كان أحد غير ماركس كتب رأس المال . كان الأمر يصبح مسرحية لدورنيات أليس كذلك ، ولكن معنى هذا أنك درست الماركسية يا أستاذ دورنيات .

قال : لقد قرأت كثيرا لماركس .

قلت : .ودخلت مصحة نفسية (وضحكت) .

قال : ولماذا تضحك . فعلا دخلتها . توجد مصحة أمراض نفسيه قريبة جدا من هنا ومديرها صديق ، وكثيرا ما أذهب إلى هناك ، وهى مصحة قديمة يرجع تاريخها إلى الوقت الذى كانت فيه هذه المنطقة تتبع بروسيا ، ولقد دخلها كثير من الكتاب الأوروبين المشهورين مثل (هيرمان هسه) و(كونراد مايو) و(لوبيدس) . ومن المضحك أن بيتر بروك (المخرج الانجليزى المشهور أو بالأصح أشهر مخرج فى تاريخ المسرح الانجليزى) حين ذهبت معه لنتفقد المصحة تمهيدا لإخراج مسرحية علماء الطبيعة على المسرح ، كانت مساعدة مدير المصحة لها (قتب) وكانت عاملة طبيعة ، وحين قدمتها إلى بيتر بروك قائلا : هذه هى عالمة الطبيعة ، كادت تجن من الفرحة لأنها ظنت أنها ستمثل الدور فى المسرحية .

* * *

لاحظ دورنمات أنى كثير التطلع ـ وهو يتحدث إلى المترجم بالألمانية ـ إلى اللوحات التى تكاد تملأ جدران المرسم ، وكم كان بودى أن أتحدث عن دورنمات الرسام، فهو لايقل موهبة عن دورنمات المسرحى أو القصصى غير أنه بدلا من اختراع الأسطورة الحديثة فى المسرح تموج رسوماته بالأساطير المستوحاة من التوراة والانجيل ، فقد كان أبوه قسيسا بروتستنتيا ، وأمه مدرّسة فى مدارس الأحد التى تتبع الكنيسة ، وطفولته مليئة بهذه المتيولوجيا التوراتية إلى درجة التشبع ،واللوحة الموجودة هنا ، هى واحدة من أكثر من مائتى لوحة صدرت فى كتاب عن دورنمات الرسام ، كتاب غالى التكاليف تماما إلى درجة أنه لم يطبع منه إلا مائتان وخمسون نسخة فقط فى العالم كله ، وكان كريما فأهدانى فى نهاية الزيارة النسخة رقم ٥٩ من هذا الكتاب المرقوم .

لاحظ كثرة طلعى فقطعنا الحوار ، وقام يرينى بعض لوحاته ويرينى كيف يرسم ، فمكتبه واسع جدا ، منخفض بحيث يصلح للكتابة وللرسم ، وعلى جانبه الأيمن دائما ورقة بيضاء (٣٥ × ٢٥ سم) معدة لكى يبدأ فجأة ، ربما فى وسط كتابته ، يرسم ، ويتأمل مارسمه ويمزقه ويعود فيرسم .

ليت المساحة وصبر القارئ يسمحان بحديث أطول عن هذا الفنان الغنى الغريب ، ولكن مرة أخرى أقول ، (ماباليد حيلة) .

* * *

عدنا للجلوس وشرب الشاى والنسكافيه ، وقلت لنفسى آن الأوان لمحاكمة الأستاذ دورنمات .

قلت : هل ممكن أن أسالك بعض الأسئلة المحرجة . (لمحت الترحيب الكامل فى ملامحه) ماذا فعلت أنت ككاتب من العالم الأول لعالمنا الثالث كيف ترانا أنت أيها المواطن فى العالم الأول .

قال : أنا حقيقة مواطن فى دولة أوروبية،ولكنى دائم التتبع لما يحدث فى عالمكم ، أنا أعرف الكثير عن أمريكا اللاتينية وأفريقيا والشرق الأوسط ، حين كنت فى أمريكا صدمت تماما بما رأيته فى مستوطنات الهنود الحمر ، ولدرجات الفقر غير الإنسانى التى يعيشها الهندى الأمريكى هناك . وقد جعلتنى تلك التجربة أغير كثيرا من أفكارى حول التقدم ومفهوم الحضارة ودور أوروبا وأمريكا ، أنا لم أقرأ كثيرا فى تاريخ الشعوب الإسلامية والإسلام،ولكننى شديد الاعجاب بالحضارة الإسلامية فى العصور الوسيطة ، وما استحدثه العرب والمسلمون من اكتشافات فى علوم كالرياضة والفلسفة إلى درجة أن كثيرين من الأكاديميين الأوروبيين كانوا يعرفون العربية ويدرسونها ويتعلمون منها منطق ارسطو وفيثاغورس وافلاطون دون أن يلموا بالاغريقية نفسها، ولقد كان الامبراطور الألمانى فردريك الثانى شديد الاهتمام بالدارسين للغة العربية والمستشرقين ، وكثير من التراث الاغريقى وصل إلى أوروبا عن طريق ترجمته من اللغة العربية، وليس الاغريقية . أجل ، فى ذلك الوقت (حوالى القرن الحادى عشر الميلادى) كانت النصوص الاغريقية تقرأ فى أوروبا فى ترجماتها العربية وليس الاغريقية .

قلت : إننى سعيد أن أسمع هذا منك .

قال : إننى أعرف أن أوروبا أحدثت امتدادات حضارية وثقافية داخل عالمكم

والعالم أجمع ، ولكنى أعرف أن تأثير الفكر الإسلامى والعربى كان قويا على أوروبا أيضا إلى درجة أن أثر فى تفكير الفيلسوف العظيم سبينوزا نفسه، ذلك الذى وصل إلى أن الله (فى كل الأديان) مبدأ واحد موجود فى كل زمان ومكان ، لقد تأثرت بتفكير سبينوزا تماما فقد كان يهوديا، ولكنه ترك اليهودية وحوكم من أجل هذا ، ولكنه لم يصبح مسيحيا أيضا ونبذ العالم وعاش فى قرية هولندية وعمل كصانع نظارات ليأكل عيشه بعرق جبينه (إذ كان هذا هو المبدأ الذى وصل إليه) بل إنه استغل قدرته العلمية واستطاع أن يحسب كم نظارة عليه أن يصنعها فى اليوم لتكفى عيشه ويتبقى جزء يكفى لجنازته حين يموت .

قلت : (ضاحكا من حكاية الحساب الدقيق للنقود هذا ، خاصة السويسريين منذ قديم الزمان) لقد كان سويسريا تماما فى هذا !

قال : ولكن المسألة بالنسبة إليه كانت أكبر من مجرد القدرة على الحساب والتدبير ، كان هذا يعنى لديه حرية الإنسان من كل قيد حتى قيد الوظيفة وأكل العيش ، قد تستغرب، ولكنى أعتقد أن هذا النوع من التفكير الذى وصل إليه سبينوزا كان هو الذى أدى فى النهاية إلى ظهور اينشتين والنسبية ، لقد بنى اينشتين نظريته النسبية مستفيدا من نظرية الكم التى اكتشفها ماكس بلانك ونيل بوهر ، ونظرية الكم تعتمد على قانون الاحتمالات ، أو قانون الصدفة وكان اينشتين يعارض هذا تماما باعتبار أنه يلغى فكرة الخالق الأول : الله .

قلت : اسمح لى : أنا لم أدرس نظرية الكم أو النسبية دراسة أكاديمية، ولكنى على الأقل أعرف أن نظرية الكم تؤكد أن مكونات الذرة وعلى رأسها

الالكترون تدور فى مسارات (حتمية) لاتتغير إلا بفعل قوى (حتمية) من خارج الذرة أو حتى لو افترضنا من داخلها ، فأى دخل للصدفة هنا .

قال : إذا كانت تزعجك كلمة الصدفة فسمها الاحتمالات .

قلت : أعتقد أننا لم نتفق حول هذه النقطة ، فأنت تفكر كعالم رياضى فيلسوف ، يعجبك سبينوزا وكانت والفلاسفة الرياضيون ، أنا أفكر بمنطق آخر تماما ، منطق بيولوجى حيوى ، أبسطه أن أقول لك إن وجود موهبة مثل موهبة دورنيات يكسر حتما قانون الاحتمالات أو الصدفة إذ هو يخضع بالضرورة لعوامل ، أو لقوانين أعمق بكثير من قوانين الاحتمالات ، قوانين حين تكتشفها البشرية ستنظر إلى قانون الصدفة وقانون الاحتمالات كما ننظر نحن الآن إلى جدول الضرب بالمقارنة إلى إمكانيات الحاسب الالكترونى غير المعقولة ، فلندع هذا الموضوع جانبا إذن ، فنحن على رمال شاطئ المحيط العلمى ، مجرد رمال الشاطئ ،وأمامنا الأبعد والأرحب والأعمق بكثير جدا مما عرفنا أو سنعرف .

قال : إذن عم سوف نتحدث . عن التصوف مثلا .

قلت : ولماذا لانتحدث عن اسرائيل وزيارتك لها وكتابك عنها .

قال : فعلا هذا موضوع أريد أن أتحدث فيه ، إنك لم تقرأ كتابى عن اسرائيل ، ولو كنت قد قرأته لعرفت أن أملى خاب تماما فى اسرائيل بعد زيارتها. لقد تغيرت اسرائيل كثيرا ، كنت أظن فى مبدأ الأمر حين قامت اسرائيل أنها ستصبح دولة أذكياء قد حملوا معهم الحضارة الأوروبية وسيتولون نشرها فى الشرق ، ولم أكن أتصور أن يتحول هؤلاء القوم الذين عانوا من الاضطهاد إلى دولة كالمؤسسة العسكرية أو مايمكن أن نسميه (ايران اليهودية) دولة

عسكرية تحتل وتبيد وتقتل . والخطأ القاتل الذى وقعت فيه اسرائيل كان نتيجة لانتصاراتها السهلة على بلاد عربية كانت خارجة لتوها من تحت وطأة الاستعمار . ان اسرائيل تقول إنها دولة ديمقراطية ومن المعروف أن الديمقراطية هى التمثيل الصحيح لفئات الشعب ، فهل الفلسطينيون المقيمون فى اسرائيل ممثلون فى الحكومة والكنيست الاسرائيلى بنفس النسبة (تقريبا ١ : ٢) .

إننى اعتقد أن هناك مكانا للدولتين الاسرائيلية والفلسطينية ، وكان يمكن للدولتين أن تقيما معا تجربة جديدة فى بابها ، دولة علمانية واحدة فيها العرب وفيها اليهود .

قلت : أتعرف يا أستاذ دورنمات أن هذا هو بالضبط المطلب الأساسى لمنظمة التحرير الفلسطينية التى تسميها الحكومة الإسرائيلية منظمة إرهابية لابد من إبادتها .

قال : هذا ناتج من خوف اسرائيل من المنظمة . إن الجانبين أصبحا الآن يخافان بعضهما إلى درجة استحالة قيام دولة واحدة تحتويهما .

قلت : ومن المسئول فى رأيك عن هذا الخوف المتبادل ؟

قال : لقد كان العرب واليهود يحيون معا منذ نهاية القرن الماضى فى سلام وتعاون حتى أيام الاحتلال التركى المسلم . وكان منطق اليهود فى ايجاد دولة اسرائيلية أن اسرائيل كانت أرضهم أيام الاحتلال الرومانى وأنهم حاربوا الرومان ثلاث حروب كبرى وحين حاقت بهم الهزيمة تفرقوا فى العالم شتاتا .

قلت : ولكن العرب أيضا حاربوا الرومان فى العصر الاسلامى الأول .

حاربوهم بضراوة ، وحرروا مايسمى الآن بالشام (سوريا وفلسطين والأردن)

قال : ولكن .. هل كانت هناك دولة عربية فى فلسطين أيام الاحتلال الرومانى ؟

قلت : ليس بالمعنى العصرى لكلمة دولة ، ولكن القبائل الإسلامية كانت هناك.

قال : اعذرنى ، فأنا أتحدث هنا من موقعى ككاتب ليس طرفا فى صراع ، ولا أستطيع أن أرفض تماما حق اليهود فى إقامة دولة إسرائيل ، ولكنى أومن تماما بحق الفلسطينيين أيضا فى إقامة دولتهم ووطنهم .

* * *

وهنا قام دورنمات وأحضر نسخة من الكتاب الذى كتبه عن المشكلة الاسرائيلية العربية وأخذ يطلعنى على فقرات منه لا تتعدى المعانى السابقة واستغربت فى الحقيقة ، فمعنى هذا أن الرجل كان قد استعد أيضا للقائى مثلما استعددت له ، فهو قد علّم الصفحات بأوراق صغيرة ، وخطط بالاحمر تحت الفقرات المذكورة ليسهل له الرجوع إليها أثناء نقاشنا ، وكأنه كان متأكدا أننا لابد أن نتطرق إلى هذا الموضوع وموقفه منه . وكم كان باستطاعتى أن أتشنج أو ألقى عليه محاضرة طويلة عن تاريخ الصراع العربى الاسرائيلى ، ولكنى قدرت ، إذا كان الرجل يحمل هذا القدر من التفتح لمعرفة الحقيقة وإدراكها ، فإن خير مايمكن عمله أن أدعوه لزيارة القاهرة ومقابلة منطقتنا. أولئك الذين يتولون شرح القضية لنا نحن فى حين أن مهمتهم أن يشرحوا وجهة النظر لمن هم فى حاجة ماسة وحقيقية لها ، حسنى النية هؤلاء الذين خدعتهم آلة الدعاية

الاسرائيلية التى لم تقابلها أبدا ردود عربية معقولة ومقبولة وعادلة وصادقة فى حين أنها فعلا وفى الحقيقة كذلك .

هو قادم إذن فى نوفمبر ، وكسب كاتب عالمى مسموع الكلمة أهم كثيرا جدا من عقد مؤتمر لا يحضره إلا المتعاطفون معنا والمؤيدون ، وتنفق عليهم الآلاف وفى أحيان كثيرة لا تظفر من ورائهم إلا خبرا سهلا فى صفحة داخلية من جريدة أوروبية ، هى فى معظم الأحيان معادية . لقاء حافل ، مع كاتب حافل وما أذهلنى فيه هو تعاطفه معنا ، ذلك الذى لانعرفه ، ولم نحفل بأن نعرفه .

وإلى اللقاء دورنمات الكبير فى نوفمبر القادم ، إذا شاء المولى ، وهو على كل شىء قدير .

افتح الحنفية
ينزل كوكايين

أنا شخصيا مذهول ومندهش من هذه الخاصية (القطيعة) التى يتمتع بها إعلامنا الموقر. أن يعقد الرئيس اجتماعا مع كبار المسئولين يناقش فيه كثيراً من مشاكل مصر العليا ، ومن ضمنها وقوع كثير من المصريين ضحايا المخدرات ، شيء جديد علينا ـ أو بالأصح على أجيالنا عموما مثل الهيروين والكوكايين شما ، وأما أن يتحول هذا التوجيه إلى (حمى) تسرى فى أنحاء المجتمع كله ، صحافة وإذاعة وتليفزيون ، وأحاديث دينية ، حتى حديث الروح يتحدث عن الكوكايين ، وخمسة لصحتك ، ولحظة من فضلك وحديث الصباح ، وسهرة المساء ومساء السهرة ، كوكايين ، وهيروين ، الموت القادم للزحف ، نهاية العمر ، التأثير المروع على القدرة الجنسية ، والعصبية والنفسية الإدمان ، الجنون لا علاج من إدمان الكوكايين، فالمريض إذا خرج يعود وإذا تعوّد انتهى .

حمّى مخيفة أمامى ومن خلفى وعلى جانبى ، وفى السيارة ، والأتوبيس ومع راكبى التاكسى ، وجلسات العائلات إن جلست ، ونميمة الزائرات والزائرين كلما جاءوا (تنمو) حمى رهيبة وطوفان حتى انى تصورت إنى لو فتحت الحنفية

لنزل منها وابل من الكوكايين والهيروين ، وإذا فتحت النافذة ستهب على عاصفة من دخان الحشيش ، وإذا أكلت «محشى» فى عزومة سأجده محشوا بالأفيون وجوزة الطيب .

ما هذا يا إخوانى ؟ !

لقد هالنى الأمر حقا ، وظننت أننا أصبنا بضرر لا نجاة منه ، ولى ولدان شابان فى عمر الزهور ، يرودان النوادى والجلسات ، ولاحظت فى المدة الأخيرة أنى دائم النظر فى عيونهما لأرى فيها أى احمرار طارئ حتى ابنتى الصغيرة سألتنى : ما هو هذا الكوكايين يا بابا ! ؟

قلت لها : إنه مادة مَخدرة .

قالت : أعرف هذا ، ولكن شكلها إيه ؟ طعمها إيه ؟ لونها إيه ؟

قلت : والله يا بنتى أنا ما رأيتها فى حياتى .

قالت : كيف وأنت قد درست الطب والعقاقير ولابد أنهم أروها لك ؟

قلت لها : الحقيقة أنه كان مفروضا أن أراها ولكن قسم العقاقير كله وقسم المادة الطبية (الماتيريا ميديكا) لم يكن به ، بل فى مصر كلها أى كوكايين أيامها (فى الخمسينات) ولا أى هيروين ، هم أرونا فقط قطعة حشيش وقطعة أفيون وكانت كلتاهما موضوعة فى برطمان مشمع بالشمع الأحمر، وعليه خاتم الأستاذ رئيس القسم (الدكتور شريف) ، ولما سألنا عن السر فى هذا الخاتم وعن ضرورة أن نتعرف على المادة ونلمسها ونشمها باعتبارنا من الممكن أن نمتحن فيها قالوا : لقد كنا نفعل هذا منذ بضع سنوات ، ولكنا كنا نلاحظ تناقص عهدة الحشيش بالذات ، عقب كل فصل عملى ، فأصر مساعد المعمل (حتى لا يروح

فى داهية إذا خلصت عهدته) أن نضعها هكذا بحيث لا يلمسها أى طالب ولما جادلنا وقلنا : وماذا نفعل اذا جاءت لنا فى الامتحان الشفوى ولم نستطع أن نتعرف عليها ؟ قال لنا الدكتور شريف : اطمئنوا .. إننا لا نأتى بها أبدا فى الامتحانات اعتبروها خارج المقرر ، ونحن نريكم إياها فقط لتتعرفوا عليها ــ من بعيد لبعيد ــ ولأغراض الطب الشرعى فيما بعد حين تدرسونه ، وليس لأغراض اللمس والشم والتعرف كما هى العادة مع جميع العقاقير الأخرى .

* * *

هذه الحملة الإعلامية الرهيبة أحدثت للأسف الشديد ، أثرا عكسيا تماما حتى إن حب استطلاع الكاتب جعله يتساءل هو الآخر ، ما هى بالضبط مادة الكوكايين ، وكيف تستخلص ، وما هو طعمها ولونها ؟ وللأسف حين سألت بعض شبان أحد النوادى الكبرى فى عاصمتنا كانت معلوماتهم عن (الأبيض) أى الكوكايين، «والأسمر» أى الهيروين وافرة تماما، وأيضا عن كيفية التعاطى وأنواع التعاطى بالشم أو بالشد أو بالحقن فى الوريد ، وحين تساءلت عن هذه (الشيشات) الصغيرة التى تشبه (البيبه) تطوع واحد منهم طويل الباع وقال لى أنها تستعمل لاستنشاق ما سماه (القاعدة الأساسية) وهى أقوى أنواع الكوكايين .

أرأيتم ماذا يصنع الإعلام المغلوط ؟
حتى لوكان عن مادة ضارة أو قاتلة ؟

إنه يثير لدى الشباب حب الاستطلاع الشديد لمعرفة هذا الشىء السرى الغامض الذى يتحدث الجميع عنه ، وهى إحدى طبائع البشر التى لا يمكنه

الخلاص منها ، وأذكر وأنا طالب فى كلية الطب أنه حدثت موجة دعائية واسعة ضد الشيوعية (أيام حكم صدقى) وحدثت اعتقالات وكنا جميعنا نحن الشباب والكبار نتحدث عن الشيوعية ، ولم يكن أحد قد قرأ عنها أو لها شيئا ، وهكذا بدأ حب استطلاعنا يجأر لكى نعرف ، وما كان الشاب منا يكاد يجد كتابا يتحدث عن الشيوعية أو الاشتراكية أو يقابل إنسانا معروفا عنه أنه شيوعى أو اشتراكى إلا ويحس أنه عثر على كنز ، ويبدأ ينهال عليه بالأسئلة وطبعا لم يعتنق الجميع الشيوعية ، ولكن نسبة كبيرة صعدت من حب الاستطلاع إلى الدراسة إلى (الإدمان) .

وهذا هو بالضبط ما فعلناه بحكاية الجماعات الإسلامية أخذنا نحاربها ونتحدث عنها ، ونحن لا نعرف عنها شيئا ، والشباب بحكم طبيعته شديد الشغف لمعرفة شىء عنها ، وهكذا ما كان هذا الشباب يكاد يلتقى بشاب ملتح فى مسجد حتى يتسمّر أمامه واقفا سائلا طالبا المعرفة التى غالبا ما كانت تنتهى بالانضمام .

* * *

ولكنى فى زيارتى لذلك النادى الكبير واجتماعى بأكثر من عشرة شبان فيه أحببت أن أعرف الحقيقة المجردة بعيدا عن تهاويل الإعلام .

فسألتهم : هل تعرفون شبابا يتعاطون هذه المواد فى النادى ؟

فكانت الإجابة : نعم ..

ولكنى عدت أسأل واحدا منهم بالذات كان يبدو اجتماعيا كثير المعارف والاختلاط : إنى أسألك عن شلتك أنت بالذات ، كم شابا تعرفه معرفة شخصية دقيقة فى هذا النادى ويتعاطى المخدرات ؟

قال : حوالى عشرين ..
قلت : كم واحدا منهم يتعاطى الكوكايين ؟
قال : إلى الآن لا أحد ، لأن الكوكايين غال جدا ، ولكن بعضهم يتعاطى الهيروين .
قلت : كم واحدا ؟
قال : حوالى اثنين أو ثلاثة ...
قلت : أنا أريد العدد بالضبط ؟
قال : قبل حملة مكافحة المخدرات الأخيرة كانوا اثنين ، بعد الحملة أصبحوا ثلاثة ..

* * *

وهنا أتوقف وقفة تأمل معكم ..
فليس الأمر مخدرات هذه المرة ..
وليس الأمر أمر جهات أجنبية تتولى (تسميم) عقول الشباب ....
ولكنه أمر خطير جدا ، أمر طريقتنا فى علاج مشاكلنا ...
ولقد كنت منذ بضعة أشهر أستاذا زائرا فى جامعة لوس أنجيلوس ، ومدينة لوس أنجيلوس تعتبر أكبر مدينة أمريكية مستهلكة للكوكايين والهيرويين بالذات باعتبارها لصيقة بالحدود المكسيكية الأمريكية التى تعتبر أهم وكر لاستيراد وتخزين الكوكايين لأمريكا بواسطة تجار المافيا وعصاباتها .

والأمر فى مجال الشباب. والشابات بالذات، ليس أمرا واحدا من كل عشرين أو اثنين ، إنه أمر يصل إلى ٥٠٪ من سيدات وبنات لوس أنجيلوس

الباحثات عن النجومية والشهرة فى هوليود اللاتى غالبا ما يصبن بالإحباط وينتهين إلى مخدر ما ، يحتاج نقودا والنقود تحتاج أجسادا تباع ورقيقا أأبيض ومصائب كثيرة ، لا أول لها ولا آخر.

بمعنى أن كارثة المخدرات فى لوس أنجيلوس لاتقاس أبدا بما يحدث هنا فى القاهرة أو غيرها ، إنها هناك كارثة قومية بالفعل..

فكيف عالجوا ، ويعالجون هذه الكارثة ؟

لاحظت من طول ما شاهدت التليفزيون بمحطاته الكثيرة هناك أن لا أحد يتحدث عن (ضرر) المخدر أبدا أو يصور الانحدار المخيف الذى يحدث للشخصية إذا تعودت عليه لأن تصوير هذا الانحدار نفسه يخلق فى المشاهد الصحيح الرغبة فى تجربة هذا الانحدار ، ففى داخل النفس البشرية قوة بانية ترغب فى الحياة وتحبها . وقوة هادمة ضائقة بالحياة وتحبذ التخلص منها ، وقد لاحظ العلماء أن عدد المدخنين فى العالم ، وبالذات من الشباب قد كثر بشكل مذهل بعد أن أرغمت الحكومات شركات السجائر على وضع شعار (التدخين ضار جدا بالصحة) فهذا الشعار يداعب وتر الضيق من الحياة والرغبة فى التخلص منها ، خاصة لو كان هذا التخلص ليس بالشكل العنيف مثل قطع شريان اليد أو الموت شنقا بكرافتة .

فهذه القوة الهادمة للحياة تغريها أى مادة تهدم الحياة وتنجذب إليها ، وكأنها النداهة التى تنادى على بحارة السفن فى الأساطير فيندفعون ناحيتها لتتحطم سفنهم على صخور الجزائر ويموتوا غرقا . إنه نداء خفى غامض يتسرب إلى النفس فى عذوبة ورقة. وكأنه نداء الشيطان المتنكر على هيئة أجمل فاتنة ..

ونحن بدعاياتنا الضخمة (ضد) الشيء المهلك ، (نحبب) دون أن ندرى هذا الشيء المهلك للشباب الغض الأغر ، وحتى بالقليل نثير فيه حب الاستطلاع كما سألتنى الطفلة البريئة عن ماهية شكل وطعم وحكاية الكوكايين . ؟

إنى معتقد أننا بإعلامنا المحموم هذا ضد تلك السموم قد أثرنا ملايين من هذه الأسئلة فى عقول الشباب والأطفال وحتى الكبار .

وهذا ما لم يفعله الإعلام الأمريكى .

الإعلام الامريكى أو المجتمع هناك . فعل شيئا آخر ..

أولا : بنى مصحات كثيرة خاصة ، ليس لمرضى الأمراض العقلية والنفسية ومعهم مدمنو العقاقير (وعلى فكرة كلمة مدمن لم تعد تستعمل فى القاموس الطبي الحديث . إنما حلت مكانها كلمات مثل « اساءة استخدام العقار » أو التعود على استخدام العقار الضار) إذ هذا هو بالضبط التعريف العلمى الدقيق فإن كلمة المدمن مثلها مثل كلمة المجنون ، لم تعد تعنى شيئا ، فلم يعد هناك أناس اسمهم مجانين . إنما أصبحت أمراضا محددة ، تسمى بأسماء محددة ولها علامات محددة .

المهم بنوا المصحات أو تبرع بها أغنياؤهم ، الممثل الأمريكى الذى دائما ما أنسى اسمه (وبالطبع ليس روك هدسون) ذلك الذى مات ابنه من جراء تناول جرعة زائدة من الهيروين ، تبرع ببناء مصحة دفع فيها مليونى دولار وجمع الباقى من الأغنياء والأصدقاء ، مصحات أهلية ، ومصحات حكومية ومصحات تأمين صحى ، السرية فيها مكفولة والعلاج لا يستغرق كثيراً وأثناء

العلاج هناك رعاية اجتماعية للمريض وأسرته .

وهكذا كل ما بقى على الإعلام ليفعله ، وهو يفعله ، أن تخرج المذيعة على الجمهور وتقول : إذا كانت عندك مشكلة عقاقير (لاحظوا كلمة مشكلة) فاتصل بتليفون رقم كذا ، تصلك سيارة ، ودع الباقى لنا ، لا مناظر تحشيش أو شم كوكايين أو هيروين ولا شيش ولا أنابيب ولا هذا الكلام الخطير الفارغ الذى ملأنا به عقول الشباب البرىء طوال الأيام السابقة .

ذلك أنهم هناك يعتبرون من يتعود استعمال هذه العقاقير إنسانا مريضا لم تلده أمه مدمنا ، وإنما هناك ظروف اجتماعية واقتصادية ، وفى مجتمعاتنا سياسة دفعت هذا الشباب إلى اللجوء إلى العقار ليشكل له هدفا يحيا من أجله فمعظم الشباب الحائر التائه ، هو هكذا ، لأنه لا يعرف له هدفا فى الحياة ولا يريد أحد أن يساعده على إيجاد هدف له فى الحياة ، وفى مجتمع كمجتمعنا العمل فيه قليل جدا ، والفراغ واسع وممتد جدا من السهل تماما أن ينزلق المرء إلى فكرة أن يكون له هدف صناعى ، يستيقظ من أجل تناوله ، ويكسب كيفما كان مصدر النقود ليشتريه ويشقى ويعمل أقل وقت ممكن لينفرد بالعقار هدفه ومحبوبه ويعطى له نفسه تماما طوال ماتبقى من ساعات النهار والليل ، وكأنه وجد بغيته وكأنه وجد له الهدف التائه ، وكأنه كان ضالا فهدى .

* * *

ولا أستطيع أن أنهى هذه الكلمة تلك التى تتصدى لمعالجتنا الخاطئة لإحدى مشاكلنا الطارئة ، دون أن أذكر مقالا قرأته لأستاذ ورئيس قسم الأمراض العصبية والنفسية فى إحدى كليات الطب بمناسبة الخمر المسمومة

يقول هذا العلامة الذى مهمته أن يدرس العلاج لطلبته كيف يعالجون من يعاقرون الخمر باعتبارهم مرضى : أن هذا السم هو الانتقام من هؤلاء الذين يشربون الخمر ، ويدعو الله فى النهاية أن يميت كل من يشرب الخمر ، مسمومة أم غير مسمومة ..

تصوروا هذا رأى أستاذ ورئيس قسم بمعنى أنه لو ذهب له مريض يشرب الخمر مفروض أن يعامله كمريض وينتشله من عثرته ، إنما حسبما كتب ورأى سيعالجه بأن يدس له السم فى كأس خمر فيميته ويريح الدنيا من عاص كبير .

إن الحد الذى أقامه الله سبحانه وتعالى لمتعاطى الخمر هو أن يجلد ، ولكن هذا الأستاذ ـ ولا أدرى كيف مرت هذه القصة على مجلس جامعة القاهرة الموقر ـ يعالج متعاطى الخمر بقتله أى بارتكاب معصية أكبر ، أكبر معصية ، قتل النفس ...

وكأن هذا هو الإسلام ..

إنه الجهل بالإسلام ، والجهل بالعلم والجهل بالمرض والجهل بمعالجة الأمراض الاجتماعية والصحية والنفسية التى تصيب الخلق لأسباب كثيرة لا يعلمها سوى الله .

المساحة الحرجة

ظللت لا أعرف لماذا كنت من صغرى احب التجمعات البشرية ، كحبى للأشخاص الأفراد ، وأعشق وجودى بينها وإحساسى بها ، فى الأفراح والموالد والأعياد . وحتى فى المآتم والجنازات والقهاوى ، أحب أن أكون واحدا من كل كبير حلو الروح ، المرح فيه بحر ، أو بحيرة مقدسة كبيرة ، ينعم الجميع بالاستحمام فيها ، إذ هو مرح (عام) وليس مرحا فرديا خاصا محدود الأثر .

ظللت لا أعرف لماذا كنت . إلى عهد قريب ، أحب تلك التجمعات والآن أصبحت أضيق بها ، إلى أن وجدت الإجابة فى مهرجان جرش .

والحقيقة أنى كنت قد سمعت عن المهرجان كثيراً ، وقرأت الكثير مما كتب عنه . ولكنى لا أعرف لماذا أيضا أصبحت أشك فى كل مدح مبالغ فيه على صفحات جرائدنا العربية ، أشم دائما رائحة شيء مّا وراءه ، ولم أكن أتصور أنه سيقدر لى أن أرى المهرجان رأى العين ، ولكن ، هذا ماحدث ، فلقد تلقيت دعوة ملحة خاصة من الأستاذ محمد الخطيب وزير الإعلام والثقافة الاردنى لحضور المهرجان ، وكنت قد زرت الأردن فى العام الماضى ، زيارة خاطفة لحضور المؤتمر الوطنى الفلسطينى ، وكانت تلك أول مرة أرى فيها هذا البلد

العربى ، ورغم أننا كنا مقيمين فى منطقة الفنادق فى عمان محاطين بالأسلاك الشائكة والحرس المدجج حتى داخل الفنادق ، تحوّطا من أية محاولات إرهابية . رغم هذا . إلا أن اللمحة الخاطفة التى رمقت بها الأردن جعلتنى ألبى الدعوة ، فأنا أريد ، مما رأيته ، وشاهدته أن أعرف عن هذا البلد الشقيق أكثر وأكثر ، إذ فى الحقيقة تلك اللمحة كانت قد بهرتنى تماما ، إذ لم أكن أتصور الأردن هكذا أبدا ، أو بالأصح ما صارت إليه الأردن ..

المهم ..

كانت المفاجأة الكبرى بالنسبة لى حين قابلنا وزير الثقافة والإعلام الأردنى فى المطار أن أجده هو بنفسه ، الصديق محمد الخطيب ، رفيق أيام الرعب فى الجزائر ، حين ذهبت مع مجموعة من الصحفيين المصريين لتغطية أخبار الخلاف الخطير الذى نشأ بين مجموعة بن خدة ومجموعة بن بيللا عشية حصول الجزائر على استقلالها ، كان الأستاذ محمد الخطيب معنا ، مندوبا عن وكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية التى كان يعمل بها آنذاك ، ومعا ، وبصحبه الزملاء حمدى فؤاد من الأهرام وفوميل لبيب عن دار الهلال ، ومحمد العزبى عن الجمهورية ورشاد أدهم عن صوت العرب (بطل الساحة فى ذلك الوقت) ــ حوالى عام ١٩٦٢ ــ عشنا أياما من الهول والإفلاس والخطورة لا تنسى ، ذلك أننا وصلنا بلدا لا دولة فيه وليس فيه حكومة ولا شرطة ، ولا قانون بالمرة ، إذ كان الصراع حول من يحكم وكيف يحكم ، قد ترك البلد فارغا تماما وكان الفرنسيون الذين كانوا يمسكون بكل شىء ، قد فعلوا ، مثلما فعل مرشدو القناة بعد تأميمها ، وتركوا الجزائر كلهم فجأة وعادوا إلى فرنسا .. حتى أن التليفونات نفسها كانت لا تجد من يحصل ثمن مكالماتها ، وأذكر أنى كنت أفتح الخط على

جريدة الجمهورية وأملى صفحة كاملة من الجريدة حديثا كان أو تحليلا قد يستغرق إملاؤه ساعتين دون أن أجد من يحاسبنى ، وكذلك كان يفعل الزملاء ..

وكم من نوادر وحكايات حدثت خلال الأربعين يوما التى أمضيناها هناك ، تقريبا بلا أى نقود معنا ، إذ كانت التحويلات أيضا مشلولة ، ولولا أننا كنا نأكل مع سفيرنا على خشبة ـ واحد من أعظم سفرائنا فى الخارج ـ ذلك الذى كان ذاهبا فى مهمة قتالية ، مصحوبا بـ (بودى جاردز) ، لولا أننا كنا نأكل عنده ومعه ويقرضنا مصروف جيب ، لهلكنا جوعا ، وقد تقطعت بنا كل سبل الاتصال بمصر.

فوجئت بالوزير محمد الخطيب هو نفسه محمد الخطيب زميلنا فى رحلة الهول ، وفوجئت به يذكرنى بأشياء حدثت فى تلك الرحلة لا يتسع المجال لذكرها هنا ، رغم مدلولاتها الخطيرة ، إذ كانت تلك هى المرة الأولى والأخيرة التى أزاول فيها عملا صحفيا حقيقيا وكما يقولون (أغطى) أخبارا وأحداثا وأدخل فى منافسات ومسابقات ..

وفرحت للمفاجأة حقا ، فما كنت أبدا اتوقعها .. ثلاثة وعشرون عاما جعلت من المراسل الشاب لوكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية ، رئيسا لوكالة أنباء الأردن ـ باترا ـ ثم وزيرا .. ياله من مشوار !

والغريب فى الأمر أن الوزير اعترف لى بكل أمانة أنه تسلم وزارة الإعلام والثقافة والسياحة حديثا ـ حين كنت فى أمريكا ـ على أثر استقالة الوزيرة ذات الموقف ـ السيدة ليلى شرف ، وأنها هى ، ولجنة المهرجان العليا التى ترأسها

الملكة ـ التى قامت بتنظيم كل كبيرة وصغيرة من شئون المهرجان وبرامجه .

* * *

وهكذا وجدت نفسى (مضطرا) لمشاهدة المهرجان ، ذلك أنى فى الحقيقة كنت ذاهبا لرؤية الأردن نفسها ، وليس لحضور أفراح ومهرجانات .. ولكنى أشكر الظروف التى (اضطرتنى) لحضور المهرجان ، وأشكر الوزير الصديق على دعوتى ، فبعد حفلة الافتتاح الرسمية التى قام بها جلالة الملك حسين والملكة نور ، والتى استغرقت فيها لأن الملك والملكة قد وقفا أكثر من ثلاثة أرباع الساعة والوفود والفرق المشتركة فى المهرجان تمر أمامهما ، وهكذا اضطر المدعوون ـ وأنا بالطبع منهم ـ إلى الوقوف على أقدامهم طوال ذلك الوقت ، إن الملك يريد أن يحيى الفن والفنانين تحية احترام عميق لماهية الفن والثقافة حتى ـ وبالذات ـ لو كانت ثقافة شعبية أو تلقائية ، أعجبتنى اللفتة تماما .

وبدأت ليالى المهرجان ..

وفجأة وجدت الطفل الذى فىّ يستيقظ و(يتفرج) و(يشارك) الطفل الذى كان يسهر فى ليالى المولد ويساهم فى حلقات الذكر وينبهر بمن يبتلعون النار ويدخلون السيوف فى بطونهم.. الطفل الذى كان يتصور الغوازى وهن يرقصن ويغنين كائنات خرافية، كأنهن جان ولسن بشرا .. اللف والفرجة والضحكة والخفقة والأنوار ، حتى ولو كانت بكلوبات ، تخلب الألباب الطفل فى مولد الحسين والسيدة والشيخ الشبراوى ، الطفل فى التيفولى فى الدانمارك حتى لو كان قد أصبح فى الثلاثين وهو يركب القطارات المندفعة والصواريخ المنطلقة فى دائرة لعنان السماء ، الطفل ولوكان فى الأربعين

والخمسين فى (ديزنى لاند) يخلع عنه فجأة كل الأقنعة الناضجة المجعدة الكئيبة ، ويرتد نقيا كالبللور ، صافيا كجدول حياة خالية رقراقة ، الطفل الذى يحب الجموع كما يحب الوجوه الجميلة والقدود الجميلة ، الطفل الذى يحب أن يسمع ، بل ويشارك ولو بصوت خافت ، فى الأغانى والموسيقى ..

وجدت هذا الطفل ينفض عن نفسه الملابس الشتوية الكبيرة الثقيلة وينزع عنه كل أغطيته ويكاد مع الفرحة يطير ، ومع الدقة يرقص ، ومع كل شىء وكل حدث يتوقف ويستمتع ويحب ..

ذلك الطفل الذى كان قد خيل إلىّ أنه انتهى من زمن ومات لأنه كبر ونضج وتضخم عقله بطريقة ابتلعت بها كل تلقائيته ، واندفاعه ، وفرحته المستمرة بالحياة .. وجدته يعود ..

* * *

ولكن العقل أيضا .. وجدته ، ويا للدهشة مع التلقائية والفرجة والطفولة يستيقظ ، بل ، ولأول مرة ، يجد (متعة) فى التفكير والتأمل ..

وجاءت الفكرة هادرة كالمياه المندفعة من السد العالى ..

إننا فى مصر لابد أن نصنع شيئا يعيد لنا حبنا للحياة ..

أننى أمرّ فى قاهرتنا الحبيبة فى الشارع أو فى السيارة فأجد ملامحنا منقبضة حتى ملامح الشبان والفتيات قاسية تعانى من الضيق .

ذلك أننا وكأنما استيقظنا ذات صباح فوجدنا أنفسنا قد وضعنا فى مأزق حياة ، ووجود لا أعتقد أن شعبا قبلنا ، ولا شعبا بعدنا سيوضع فيه ، ذلك أننا

استيقظنا لنجد أننا تضاعفنا فى فترة لا تزيد عن الربع قرن أربع مرات فى بلاد ورقعة زراعية ومأهولة لا تتسع إلا بالكثير لاثنى عشر مليون إنسان ، أصبح فيها الآن ربما أكثر من خمسين مليونا من السكان ..

هذه المرة ليست المشكلة مشكلة فقر وغنى ، مشكلة طبقية أو سياسية ، ولكنها مشكلة لم تخطر لآدم سميث مفكر الرأسمالية أو كارل ماركس مفكر الاشتراكية على بال .. مشكلة وجود بشرى مكثف تكثيفا هائلا بحيث يجعل من نفس ذلك الوجود جحيما بشريا لا يطاق .. إن الإنسان إنسان لأنه (نوع) والنبات والحشرات هكذا لأنها (كم) والإنسان أبدا لا يستطيع أن يحيا ـ بل أن يسعد ويزاول كل وظائفه العليا كإنسان إلا وهو يحيا كنوع إنسانى ، والنوع الإنسانى أحد متطلباته ليس الطعام فقط أو الأوكسيجين ولكن (المساحة) أو بالأدق الحد الأدنى من المساحة اللازمة لحركة وتنفس ووجود الكائن البشرى الحى وأعتقد أن علماء الجغرافيا البشرية والعلوم الاجتماعية لابد يدركون أن هناك (مساحة حرجة) لازمة لوجود كل إنسان على حدة ليتكون مجتمع مّا ، فإذا تضخم العدد بحيث تجاوز هذه المساحة الحرجة ، ووصل إلى مرحلة من التلاصق والتكثف غير بشرية بالمرة ، لابد أن تحدث لهذا الكائن البشرى تغيرات وأمزجة واتجاهات وتطرفات وأنواع من الخبل والهوس والجنون الخفى على المستوى الفردى والجماعى ، لم يعرفها الناس من قبل ..

وذلك هو المأزق البشرى الخطير الذى نحن عليه الآن ..

لأمر مّا عنّ للعقلية الجماعية المصرية أن تتكاثر وتتكثف ، دفاعا مغلوطا عن النفس ربما ، سرطانا جماعيا ربما ، جشعا لحياة لامتعة فيها إلا الطعام والجنس

ربما ، لا أعرف ، والغريب أن أحدا من علمائنا لا يعرف أيضا ، بل لم تحاول جامعاتنا أن تدرس هذه الظاهرة ، وما عدا ذلك الكتاب العظيم الذى كتبه الدكتور جمال حمدان والذى اصطحبت جزأه الرابع الخاص بالسكان فى مصر معى فى رحلة سابقة ـ وهى دراسة رغم تفردها وعبقريتها إلا أن جمال حمدان يقف أيضا ، وهو العالم الفذ الكبير ، يتساءل حائرا عن سر هذا الانفجار البشرى المصرى

أما السر فنتركه لبحث علمائنا ، إن أتاح لهم ازدحامهم هم الآخرين أن يبحثوا ، أما نتائج هذا الانفجار وما يفعله فينا وبنا فتلك أمور لابد أن نعى بها تماما وإلا هلكنا ، أجل ، أقولها بملء صوتى هلكنا .. فكثير ، بل أقول .. معظم ما نشكو منه ، مرجعه إلى هذا التضخم السرطانى الهائل فى عدد السكان والأفواه .. ولولا أننا شعب عريق الحضارة تشكل المادة الحضارية جزءا أساسيا من تكوين أبسط فلاحيه وأمييه ، لكانت قد حدثت لنا أهوال وأهوال .. إن معظم الدعاوى والغوغائية السطحية والسلوك الغريب فى مدرّجات الكرة وحفلات الغناء ، والشارع ، والنادى ، ووسائل المواصلات ، كلها راجعة إلى (التلاصق) الجسدى الذى تعدى المسافة الحرجة واعتدى على التفرد البشرى الواجب ليكون الإنسان أو الإنسانة بشرا سويا .. وفى مثل ذلك الجو غير العاقل وغير البشرى فأى دعوى حتى لو كانت ضدنا ستجد الاستجابة ، فالناس من فرط ازدحامها أصبحت تكره بعضها لله فى لله ، وتكره وجودها معا وقد ضاق ذلك الوجود إلى حد الاختناق ، تتوق إلى مكان أو فرصة تزاول فيه تفردها وإنسانيتها ونوعيتها البشرية فلا تجد ..

أقول نترك دراسة الظاهرة أسبابها وملامحها ، وماذا يمكن أن تفعله لنخرج من هذا المأزق الخطير تماما ، للعلماء وللمتخصصين ونعود للمهرجان .

* * *

هنا الازدحام أيضا موجود، هذا حقيقى ، ولكنه ازدحام إنسانى وليس تكدسا بشريا ، البنات والأولاد والأطفال والجدات والرجال والشباب والشابات خمسة عشر ألفا أو يزيدون كل ليلة ، تزدحم بهم ساحة تقل كثيراً عن ساحة ملعب كرة ولكن أحدا لا يصطدم بأحد ، وشابا لا يعاكس أبدا فتاة ، والأطفال أطفال فعلا وليسوا شياطين صغارا والعروض كثيرة ومتنوعة ، من أربعين دولة وحوالى مائة وأربعين عرضا من ليالى المهرجان العشرين ، وما أروع لحظة اللقاء بين الفن والناس وبين الناس والفن ، ما أروع لحظة التفرج والتمسرح التى أصررت عليها فى نظريتى المسرحية ، هنا النفس جزء من الفرجة والممثلون والموسيقيون والراقصون جزء من الجمهور والجميع فى حالة عظيمة من النشوة هنا الجميع أطفال إلى درجة البراءة المحضة وكبار إلى درجة التصرف المتحضر غير المندفع أو المجنون ، هنا الجميع فى ساحة واحدة ، ومزدحمون ولكن بقى لكل منهم الحد الأدنى من المسافة، والمساحة الواجبة أن تتوافر للإنسان طفلا كان أو شيخا ليتنفس ويحيا ويتحرك ، ويحب ، وينفعل ، وينبهر ، المزمار الصعيدى والطبلة بجوار الفرقة القومية للفنون الشعبية بجوار الفرقة الأمريكية والبالية الانجليزى وفرقة الرقص الروسى، والأنوار ساطعة والتلال المحيطة والوادى تحفل بالنور، النور الصادر من كل عينين متطلعتين ، هنا الحياة تبدو جميلة جدا جديرة بأن تحيا ، والبشر

يبدون جميلين جدا جديرين بالحياة وبالفن وبالحب وبالحرية وبالاستقلال وبكل مايجعل الإنسان إنسانا بل وحتى سوبرمان .

والسبب !

إن عدد الناس هنا إذا قورنوا بمساحة الأرض المأهولة معقول تماما ، هنا الشارع عريض فسيح جديد، وليس حارة أصبحت تتكدس بالبشر والعربات والخناقات ، هنا أطلق سراح الإنسان ليتحرك فنحن فى القاهرة سجناء شوارعنا وبيوتنا ونوادينا ووسائل مواصلاتنا وانتقالاتنا سجناء فعلا لا قولا ، سجناء لأننا لا نستطيع الحركة كما نريد فنتكدس وندبّها فولا وطعمية وبلا حركة نتخن ونتخن ولا رياضة فردية ولا جماعية ولا مكان للسير أو التمشى ، بشر.. بشر.. بشر.. طوفان من البشر ، ضللت مرة طريقى ودخلت حيا لا أعرفه كدت أصاب بالذعر من العدد المخيف من الناس المزدحمين فى شارع واحد من حى واحد من مدينة واحدة من مدننا ، يا إلهى ، ماذا حدث وماذا نفعل ، فنحن بهذه الطريقة . وبهذا الكم لا نحيا ، ولا نفرح ، ولا نبتهج ، ولا نحتفل ولا نقيم مهرجانات إنسانية حلوة ، ولا نفعل إلا أن نستلق أمام التليفزيون مستسلمين لمتعة سابية تماما ، نتفرج على الكترونيات ترسم صورا وقصصا ، بينما الحياة الحقة هى ما (يزاولها) الإنسان وليس ما (يتفرج) عليها ، وكأن ازدحامنا وصل إلى درجة التوقف أن نحيا ، بل حتى أن نوجد ، فوجودك دائما مجروح ومقتحم بوجود لصيق آخر لا تملك له دفعا .

محروسة أنت يا مصر هذا صحيح .

ولكن شعبك يخنقك ويختنق بك ، وحتى دعاواه مهما تسربلت بثوب من

العلم أو الدين فهى دعاوى اختناق بشرى وازدحام وجود .. وما هكذا تكون الدعاوى أو توجد ، فالدعاوى يطلقها البشر للبشر ، فإذا كان الطالقون يحبون فى علبة سردين والمستقبلون يكتظون وكأنما فى علبة تونة ، فإنها دعاوى اختناق يرسلونها لمختنقين ..

* * *

إنى متأكد أن مصر ستجتاز تلك الأزمة ، لا أعرف كيف ، ولكنى أعرف أن هذا الشعب المجيد قد مرّ بأزمات وجود طاحنة ، مجاعات أكل فيها مالا يؤكل ، حتى بعضه أكل بعضه ، وولاة كانوا فى أحيان جزارين ، واحتلالات متعاقبة لم ير مثلها شعب .

اعرف أننا سنجتاز هذه الأزمة بكل تأكيد ، ولكنى أصبحت فى شك أن يتم لنا هذا الاجتياز فى أعمارنا نحن ، أو عمرى على الأقل ، وليس هذا تشاؤما ، إنه عين التفاؤل ، فحتى السرطان الخلوى نفسه قد أصبح يشفى ويمكن علاجه ، فما بالك بما هو أخف ، أخف لأن فى أيدينا شفاءه ، ولو كنت من حكومتنا لعقدت فورا مؤتمرا عاجلا أجمع له أعظم العلماء والمفكرين والمتخصصين ويكون له موضوع واحد فقط .

كيف نحل مشاكل ازدحامنا الوجودى ووجودنا المزحم بطريقة تعيد لكل مواطن منا إنسانيته ؟!

حتى نعود نفرح ونبتهج ونقيم أحلى المهرجانات .

ضحك الجنازات ؟

قرأت الحديث الذى أجراه ابننا الصحفى الشاب بهاء صلاح جاهين فى الأهرام مع الأستاذ العميد الدكتور لويس عوض . كان أهم محتويات الحديث أن الدكتور لويس عوض ينعى فى رثاء جليل حركة الكبار فى الأدب العربى وعلى رأسهم أستاذنا الكبير توفيق الحكيم وعمنا المبدع نجيب محفوظ ، وشيخ طريقتنا القصيرة يحيى حقى وكاتب هذه السطور. كذلك لم يسلم كبار نقادنا ـ ضمنا من النعى ـ الناقدين الكبيرين الدكتور عبد القادر القط والدكتور على الراعى .

وقال الدكتور لويس عوض فيما قال : أنه جيل ـ يقصد هؤلاء جميعا الذين ذكرتهم ـ قد انتهى بحلول النكسة أو الهزيمة عام ٦٧ ـ ولم يعد لديه شىء يقوله أو يبدعه . وأنه هو شخصيا قد مل الكتابة والكلام وفرغت جعبته والحقيقة أنى كنت قبلها بليلة قد فرغت من قراءة كتاب الصديق الموهوب أحمد رجب «كلام فراغ» وهو كتاب من أعظم ما قرأت خلال الأعوام الماضية لا لأنه يحتوى على كنوز معرفة غالية ، ولا لأن حكمة الكون كله قد تلخصت فيه ، ولكن لأن أحمد رجب نموذج فريد فى الكتابة الساخرة ، وإذا كان الكاتب الذائع الصيت أرت بوكوالد قد ابتدع طريقة أمريكية فريدة فى السخرية خاصة

من الرؤساء الاميريكيين وزوجاتهم ـ أثناء حكمهم بالطبع ـ محتويا فى جعبته جده الروحى مارك توين ، وحتى شارلى شابلن كمؤلف إلا أنها طريقة أمريكية فيها سخرية ذكية ذكاء العواجيز الخبثاء أما صديقنا أحمد رجب فهو ساخر مصرى أصيل ، روحه من روح عبد الله النديم وأسلوبه فيه رشاقة الكاتب العبقرى الساخر المرحوم محمد عفيفى ، فيه نكتة محمود السعدنى الفاقعة فى مصريتها وطول لسانها فيه لمسة صلاح جاهين الكاريكاتيرية وتلامذته من رمسيس إلى الليثى إلى محمد حاكم ... غير أن ميزة أحمد رجب الكبرى هى فى نهايات. نصف كلمة. التى يكتبها، إنه دائما يجهز لك قنبلة مسيلة لدموع الضحك فى آخر كل فقرة يكتبها، وهى قنبلة لا تقتل ولا تجرح ولكنها تدفعك حتى للتأمل وكأن فيها كل الحكمة . كنت فى الليلة التى قبلها قد انتهيت من قراءة الكتاب ، واستنفدت كل طاقتى من الضحك بينى وبين نفسى أولا ، وبصوت عال يكاد يوقظ من فى البيت وحين طويت الكتاب ووضعته جانبا ، قلت لنفسى : هأنذا قد ضحكت بما يكفينى شهرا بأكمله .

ولم أكن أتصور أنى فى اليوم التالى مباشرة . سأضحك وأنا أقرأ حديث الدكتور لويس عوض كما لم أضحك فى حياتى .

وأنا أعرف صديقا لديه عادة غريبة هى أنه ، ما أن يدخل سرادقا للعزاء حتى لو كان الميت أعز أقربائه . حتى تنتابه موجة ضحك عاصفة ، ولهذا لا يذهب للعزاء أبدا إلا وهو يتلفع بكوفية يلفها حول نصف وجهه الأسفل حتى لاتحدث مأساة من جراء ضحكه على هذه الصورة .

أنا أيضا وجدت نفسى فى هذا الموقف لدى قراءتى الجنازة التى أقامها

الدكتور لويس عوض ، لجيلنا ، ولنفسه ، فقد وجدت نفسى أنفجر وأضحك وأضحك حتى كدت أختنق .

والدكتور لويس عوض ليس أستاذى فقط ، ولكنه صديق عمرى عرفته منذ عام ١٩٥٣ ولا أزال أحبه وأوده وأحتفل به وبكل ما يقول وكأن اثنين وثلاثين عاما لم تمر على معرفتى به . ولكن هناك شيئا لابد ـ لكى أكون صادقا مع نفسى ـ أن أعترف له أمام القراء بشىء ، ذلك أنى فى مبدأ الأمر كنت آخذ الآراء المتطرفة التى تبدأ تتدفق من قريحته بعد أن « يسخن » تفكيره كنت آخذها مأخذ الجد وأحتد عليه ويحتد على وننخرط فى خناقة فكرية ما أنزل الله بها من سلطان . ولكنى جربت مرة ألا أنفعل ، بل أكثر من هذا أن « أتفرج » على آرائه وألا أندمج فى الرد عليها ، وكانت النتيجة أنى بدأت بدل أن أغضب أن أبتسم بل أضحك ، بل أحيانا أضحك كثيراً وأحيل الموقف كله إلى موقف كوميدى صارخ .

وبالطبع هذا لا يحدث فى كل الأحوال ففى الغالب آخذ حديث الدكتور لويس عوض مأخذا جادا عميقا ـ حين يكون الأمر كذلك ـ أما حين يتطرف ففى الحال أقلبها ضحكا .

ولقد أضحكنى الحديث .

وبدأت الضحك بقوله « جيلنا » مسبغا على شرف الانتماء إلى جيل توفيق الحكيم « ٨٧ سنة » ونجيب محفوظ « ٧٤ سنة » وزكى نجيب محمود « فوق السبعين » والدكتور حسين فوزى ٨٨ وكلهم أطال الله فى أعمارهم جميعا فى سموق أشجار الكافور على شط نيل الجيزة ، جذورهم ضاربة فى تربة مصر منذ

العشرينات حين بدءوا الكتابة حين كنت أنا لا أزال فى عالم الغيب حيث ولدت عام ٢٧ وبدأت الكتابة عام ٥٠ بينما هم عمالقة كبار بالكاد أصلح تلميذا لهم . أضحكنى هذا الشرف الذى أسبغه علىّ الدكتور لويس مثلما كان صديقى الأستاذ محمد عودة أسبغة علىّ ، نفس الشرف ويقول إن أبى رحمه الله ـ قد قيدنى فى شهادة الميلاد بعد مجيئى بعشر سنوات حتى يتجنب أن أدخل « القرعة » فى سن صغيرة .

ثم حين أوغلت فى المقال ـ الجنازة ـ انتابتنى تلك الموجة الأخرى من ضحك الجنازات فالدكتور لويس يبدأ بإصدار حكم باتر لانقض فيه ولا إبرام ـ إنه انتهى منذ حاقت النكسة بمصر ـ وكذلك انتهى معه ما سماه جيلنا واحدا واحدا بمن فيهم العبد لله .

ضحكت لأنه منذ عام انتهاء الدكتور لويس عوض عام النكسة عام ٦٧ والدكتور لويس قد أبدع وأنتج أهم مؤلفاته على الإطلاق : كتابه المحيط عن اللغة العربية . ذلك العمل الخلاق الذى سيبقى مابقيت اللغة العربية ، كتابه عن : أعمدة الناصرية السبعة . كتابه عن جمال الدين الأفغانى وذلك الذى أثار من الضجة وكتب عنه عدد من المقالات ورغم أن معظمها كان نقدا متحيزا يعادل ماكتب عن كل الكتب التى طبعت ونشرت فى تلك الحقبة ثم على أثر خلاف حول النشر فى الأهرام ، فجأة استقال من الأهرام ، واتخذ له مكتبا فى شارع الهرم راح يقوم فيه بصناعة ثقيلة للحركة الثقافية ولايزال بكل همة ، ينشط ويعمل ...

بمعنى أن ما أنتجه لويس عوض ـ بعد ما أنتهى حسبما يقول ... يعادل إن

لم يتفوق كثيراً على إنتاجه قبل أن ينتهى وقبل النكسة ... فلماذا هذا المعزى الكبير لينصبه لنفسه ولنا .

وإذا أخذنا بقية الجيل فسنجد أن ما أنتجه الدكتور زكى نجيب محمود خلال السبعينات فقط يعتبر فى رأيى أهم كتبه على الإطلاق، أما الأستاذ نجيب محفوظ فله كل عام رواية وأحيانا روايتان وتعتبر رواية الحرافيش أو ملحمة الحرافيش فى رأيى عملا يرقى فوق مستوى العالمية، ويكفى أن يكتب كاتب فى حياته عملا واحدا كملحمة الحرافيش ليخلد أبد الدهر، ودى سيرفانتس لم ينتج إلا رواية واحدة عظيمه هى دون كيشوت ودانتى أنتج الجحيم وأنشأ بها فن الرواية الإيطالية ولغتها وكذلك جوته فى فاوست ونجيب محفوظ لم يتوقف وإنتاجه من ناحية الحجم والانتظام أكثر بكثير من إنتاج أى من تولستوى ودستوفسكى .

فلماذا هذا الحكم بالإعدام يا أستاذ ؟

أما إذا تركنا جيل الكبار هؤلاء وجئنا إلى الجيل الحائر -جيلى- فإنتاجه أيضا لم يتوقف. فكتابة المقالة اكتسبت خصائص القصة، وكتابة القصة حفلت ببعض سخونة المقالة. وربما يكون ما أكتبه فى الأهرام نوعا جديدا من «الاوتشرك» على رأى أستاذنا المرحوم الدكتور مندور ورغم ذلك أيضا لم أكفّ عن كتابة القصة فقد أصدرت منذ بيت من لحم، مجموعتين من القصص «أنا سلطان قانون الوجود» و«اعقلها وتوكل» ورغم المأساة التى تحياها الحركة المسرحية كتبت ما أعده فى رأيى أهم مسرحية كتبتها على الإطلاق - وهى مسرحية البهلوان، تلك التى لم تر النور للتسوس الذى حدث لمسرح القطاعين الخاص والعام على حد سواء والقائمين عليه .

إذن هذا الجيل الذى حكمت عليه بالفناء رغم أنه فى السن التى يجب أن يؤدى فيها إلى الشيخوخة الجميلة والتأمل الأعمق للحياة ولايزال ينتج ويبدع ويناضل ويخوض المعارك كأى كادح شاب .

ولو كنت مثلى يا دكتور تتلقى إنتاج الشبان الجدد ، كل عام، شبان جدد موهوبون خلاقون يكتبون ويصرفون على ما يكتبون لكى يطبعوه ويوزعوه بأنفسهم وهو إنتاج عالى المستوى تماما .. أى قصة منه حتى لو كانت لمبتدىء تفوق ما كان يكتبه الأوائل فى العشرينات ، فى عز ازدهار فن القصة القصيرة آنذاك .

أذن موضوعيا لا يوجد ما يستدعى حكما بالإعدام ولا إقامة جنازة فالحركة الإبداعية تمشى ببطء ، هذا صحيح وليس لها توهج الستينات هذا صحيح ولكن الحركة الإبداعية غير منفصلة أبدا عن حركة الإنتاج فى المجتمع ككل فالخلق نوع من الإنتاج، ومجتمعنا بعهد انفتاحه (الملوث) كاد يئد حركة الإنتاج فى المجتمع ككل وإذا كان هذا لم يحدث وإذا كانت هناك حركة عارمة تريد إعادة الإنتاج إلى سابق عهده ، فلابد أن يصاحبها حركة أشد فاعلية لإعادة الإنسان المنتج إلى سابق عهده، وهذا هو دور الفن والأدب والثقافة فنحن نحيا فى حالة مجاعة ثقافية وأحوج مانكون إلى أن نبقى على أفران الفن القليلة التى لا تزال تقدم لنا رغيف الثقافة والإبداع وكلمة منك أيها الناقد المعلم كانت كفيلة باستنهاض الهمم وفتح أبواب إنتاج مغلقة ورعاية حركة تسبح ضد تيار عنيف بشع يريد أن نظل نحيا فى ظل التبعية البضائعية والثقافية .

* * *

وبعد أن طال ضحكى مع حديث الدكتور لويس عوض بدأت دموع تتجمع فى أركان عينى. ذلك أنى ادركت المشكلة وعرفت أن الدكتور لويس عوض يعانى من حالة من حالات اكتئابه وما أكثرها ... فالرجل يحس أنه يعيش فى مجتمع يظلمه ويضطهده. وهذا ليس شعور شخص ولكنه حقيقة موضوعية فالدكتور لويس عوض هو الوحيد الباقى من العمالقة الذى لم ينل جائزة الأدب التقديرية فقط. ولكنه حتى لم يرشح لها ولوكنت من بعض من نالوا هذه الجائزة عن غير حق وعن غير جدارة الا علو الصوت واحتلال المقاعد والمنابر والوجود ـ ولو بالقوة فى الصورة كما يقولون لوكنت واحدا من هؤلاء لرفضت أن أنال جائزة الأدب بينما لويس عوض ذلك الذى لا يقل دوره عن دور مندور وطه حسين والعقاد فى النقد لم ينلها وغير مرشح لها

وأنا شخصيا لا أعترف ولا أعتبر أن جائزة الدولة فى الأدب تعنى شيئا بالمرة فهى لا تصنع كاتبا. وعدم نوالها لا يهبط بكاتب ولم أعرها التفاتا منذ أن أنشئت إلى الآن ولن أعيرها، ولكن الأمر بالنسبة للدكتور لويس عوض مسألة مختلفة فإن الجامعات لا ترشحه لأن الجامعيين لا يكنون له حبا كثيراً والمجلس الأعلى للثقافة أغلب أعضائه كتّاب لم يكتب عنهم لويس عوض شيئا ذا بال. ولذلك فهم يعادونه بل ويتمنون زواله ... أما هو نفسه فهو لا يمكن بكبرياء مصرى جميل أن يطلب لنفسه جائزة وحتى يتطلع إليها.

الأمر إذن أمرنا نحن .. نحن وزارة الثقافة ووزيرها نحن المسئولين فى هذه الدولة نحن الكتاب الذين تعلمنا من لويس عوض وسوف نتعلم عليه. كيف نسكت على أمر كهذا وكيف نبقى ماردا مثله يعانى من حالة اكتئاب قصوى يتمنى معها لو حطم وتحطم معه المعبد. أفقدنا إحساسنا بالآخرين إلى هذه

الدرجه . أم أن العملة الرديئة هى التى سادت الحركة الثقافية تماما، وهى التى أصبح بيدها تقدير كل شىء وكل كاتب وكل مبدع وإنشاء كتاب كخيالات المقاتة وسلب المكانة والروح من كتاب عظام أحياء. وكأنهم بالقضاء على المبدعين الحقيقيين سوف يحتلون هم مكانتهم دون منافس أو منازع فلنظهر لهذا الرجل العظيم الذى يحيا بيننا بعضا من التقدير وبعضا من الحب فهو منا ونحن منه حتى مع أولئك الذين يختلفون معه فى الرأى لا ضير عليهم من حبه ووده وإلا لما قال الأقدمون إن الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية .

أم كان الأقدمون أحكم منا وأنضج وأكبر نفوسا وأرحب صدورا ؟ !

مهزلة دورينماتية

تلقيت من السفير السويسرى خطاب شكر موجها إلى الأستاذ إبراهيم نافع رئيس مجلس إدارة الأهرام ورئيس التحرير. وفيه يشكر الأهرام على المأدبة الحافلة واللقاء التاريخى الذى استضاف فيه الأهرام الكاتب الكبير فردريتش دورينمات والعائلة المسرحية المصرية على غداء كما يقول الخطاب (غداء ملكيا) .

والحق أنى وأنا جالس بين دورينمات وزوجته المخرجة الالمانية شارلوت وأمامنا الحركة المسرحية الصوتية من كتاب ونقاد ومديرى فرق ونجمات ونجوم لم أملك نفسى من الإحساس بالسعادة . ذلك أن هذا الحدث حدث أن تجتمع العائلة المسرحية كلها لتحتفل بأكبر كاتب مسرحى أوربى معاصر فى زيارته للقاهرة مسألة ليست من قبيل البذخ كما تفضل بعض صغار الصفحيين وذكروا ولا هى من قبيل الأبهة الكاذبة . ولكنها هى بالضبط مانعنيه بكلمة « الثقافة » فالثقافة ليست كتبا يكتبها أناس ليقرأها أناس ، الثقافة بالأساس إحساس قوى يربط المهتمين بمصير يربطهم فى مختلف أنحاء العالم بفكرة إنسانية واحدة .

ولقد كنت فى سويسرا قد قضيت ساعات مع دورينمات نتحدث فى شتى المواضيع ونشرت بعض الحديث على صفحات الأهرام ولا أذكر إن كنت قد

كتبت فى تلك الأحاديث أنى قد دعوته لزيارة القاهرة أم لم أذكر فالواقع أنى كنت قد وجهت الدعوة فأجابنى بطريقته التى تبدو غير متحمسة : أنه قد قبلها وأنها من المنتظر أن تتم فى نوفمبر خاصة وأن زوجته المخرجة فى الشبكة التليفزيونية الالمانية الأوروبية تريد أن تصور فيلما عن مصر القديمة والحديثة .

لم أكن متأكدا أن الدعوة ستتم . ولكنى حين عدت إلى القاهرة اتصل بى مستر أرزمان القائم بالأعمال السويسرى ، كان السفير غير موجود وذكر لى أنه تلقى خطابا من دورينمات يؤكد فيه على أنه سيحضر إلى القاهرة فى نوفمبر .

وهنا وقعت فى حيص بيض ، فعلاقتى بالسيد وزير الثقافة السابق كان مجالها محكمة باب الخلق ولست فى سعة من الرزق تسمح لى باستضافة دورينمات على نفقتى الخاصة ولا أستطيع الاقتراب من مؤسسة المسرح أو حتى الثقافة الجماهيرية لتبنى تلك الدعوة فماذا يارب أفعل ؟

بعد بضعة أيام كنت فى المركز الثقافى الفرنسى فى زيارة لمعرض الكتاب أو بالضبط الكتب التى ألفت بالفرنسية عن مصر والبلاد العربية والإسلامية وهالنى عدد الكتب التى تبدأ من كتاب « وصف مصر » إلى الآن

وفى المركز وجدتنى وجها لوجه أمام الدكتور ممدوح البلتاجى رئيس هيئة الاستعلامات وخطر لى أن أحدثه بالمشكلة التى أوقعت نفسى فيها فاذا بالرجل وبحماس زائد يقول لى : لا مشكلة ولا شىء من هذا القبيل ... ستتولى هيئة الاستعلامات دعوة الكاتب الكبير واستضافته وعمل كل شىء من أجل أن

يأخذ هذا الكاتب العالمى فكرة حقيقية عن بلادنا ، ولكن قلت له إن هذا عمل وزارة الثقافة وأنت تعرف الوضع .

قال : من قال هذا ... إنه من صميم عمل هيئة الاستعلامات فعندنا إعلام داخلى للمصريين وإعلام خارجى تتولى به دعوة كبار الكتاب والصحفيين وهناك ميزانية وبرامج لهذا كله . وأن يأتى كاتب كدورينمات لمصر حدث عالمى لا يمكن أن نتركه يمرّ، فإننى متأكد أنه إما أن يكتب كتابا أو سلسلة مقالات أو حتى مسرحية عن مصر، فمصر بالنسبة للعقلية الإبداعية الأوروبية تشكل مهبط وحى لا يمكن أن تمرّ عليه قريحة خلاقة دون أن يؤثر فيها بطريقة ما . وبعد اسبوع واحد كان الدكتور ممدوح البلتاجى قد نظم برنامجا متقنا للرحلة والإقامة وأرسل باسم الهيئة دعوة لدورينمات وزوجته وكان القائم الأعمال، السويسرى عندى فى مكتبى يناقش معى تفاصيل الندوات التى سيعقدها دورينمات فى القاهرة واحدة فى الجامعة والأخرى فى لقاء مع العائلة الثقافية فى الأهرام والثالثة ندوة مفتوحة فى فندق شيراتون الجزيرة حيث يقيم والرابعة فى معهد جوته الألمانى ، كان هذا الكلام فى يوليو من هذا العام وكنت قد وعدت دورينمات أن نقدم له عملا من أعماله التى ترجمت وقدمت على مسارح القاهرة « أربعة أعمال » وهكذا اتصلت بالمسئولين فى هيئة المسرح لتحضير عمل يعرض أمامه باللغة العربية واخترت المخرج الفنان سمير العصفورى ليقدم هذا العمل باعتباره أول من أخرج مسرح لدورينمات فى مصر واختار سمير أن يقدم مسرحية « الشهاب » لقصرها من ناح والمحدودية ممثليها من ناحية أخرى .

وفى نفس الوقت فاتحت الأستاذ إبراهيم نافع فى حفل غداء . نقيمه على

شرف الرجل فى الأهرام عندنا وقد أسعدنى حقا أن قال لى أن كل إمكانيات الأهرام تحت تصرفك ...

هكذا ترتب كل شىء .

وبدأت الشهور تتوالى أغسطس ثم سبتمبر ثم أكتوبر ... وكان وزير الثقافة قد تغير وجاء الصديق الكبير الدكتور أحمد هيكل وزيرا جديدا ومتحمسا .

وذهبت للقائه وأعدت عليه قصة دورينمات والمسرحية التى يجب أن تقدم فذكر لى أن الدكتور سمير سرحان اتفق مع سمير العصفورى على كل شىء وأن بروفات المسرحية قائمة على قدم وساق .

وبعد أسبوع اتصل بى الأستاذ سمير العصفورى وقال لى إنه رأى أن عرض الشهاب غير ممكن وأنه اختار مخرجا من تلاميذه ليقدم عرضا يستغرق ساعة يستعرض فيه مقطعا عرضيا لكل أعمال دورينمات .

الحقيقة دهشت فدورينمات كتب ما لا يقل عن الثلاثين عملا وكيف ستضع هذا المقطع العرضى لكل تلك الأعمال . ولكن لثقتى فى قدرة سمير العصفورى قلت : أنت المسئول ... وأنت وما تراه ...

وقبل وصول دورينمات بأسبوع لعب الفأر فى عبّى فاتصلت بالدكتور سمير سرحان أطمئن على العرض ، فإذا به يذكر أن سمير العصفورى قد ذهب ليحضر مهرجان قرطاج فى تونس ، وأن العرض لن يقدم .

وأحسست بجانب كبير من كارثتنا المسرحية يتبدى على أبشع صورة ..

كارثة كانت قد بلغت دورينمات نفسه وهو لا يزال فى سويسرا فقد كانت

أول كلماته لى حين قابلته فى المطار أن قال إنه حزين لأن العرض المسرحى ألغى فقد كنت فعلا أريد أن اتفرج على دورينمات بالعربية .

وغرقت فى خجل لما آلت إليه أمورنا المسرحية والثقافية .

وغرقت فى خجل أكثر حين عرفت أن أحدا لم يحاسب على ما حدث ولا وجّه لوما لأحد، ومرت المسائل وكأنها لعب عيال نأتى بكاتب عالمى من النادر أن يغادر بلده أو يحضر عروضه فى البلاد الأخرى ونعده بتقديم عمل مسرحى له ثم إذا بنا فى آخر لحظة وبكل استهتار هكذا نقول له معلهش .... تتعوض .. المرة الجاية إن شاء الله .

لقد كانت الزيارة ناجحة تماما من الناحية الثقافية والاجتماعية فاشلة تماما من الناحية المسرحية والمناقشة المسرحية ، وربما كان الخطأ خطئى إذ اعتمدت على أن لدينا مسئولين عن هذا كله وعملهم أن يضعوا هذا ولا أقوم أنا أو غيرى بكل العمل . لقد حرصت على أن أحضر أقل عدد من الندوات والحوارات التى أجراها دورينمات مع التليفزيونيين ومع الجامعيين ومع المثقفين لأنى اعتقدت أننى بدعوتى دورينمات للقاهرة وتلبيته الدعوة يصبح من عدم اللياقة أن أحشر نفسى فى كل كبيرة وصغيرة .

عذرا أيها الكاتب العظيم .

وقلبى معك يادكتور هيكل فى وزارة اختلط فيها كل شىء بكل شىء، و يعد فيها مسئول واحد تستطيع أن تطمئن إلى كلامه أو إلى وعده .

الأب الغـائـب

منذ مدة ، وحين بدأنا نقرأ عن الحوادث الغريبة التى بدأت تحدث فى مجتمعنا وتجمعاتنا . أب يقتل ابنه ، أم تقتل ابنها وزوجها بالتعاون مع ابنتها ابن مثقف يقتل أباه وأمه رميا بالرصاص بزعم الإشفاق عليهما من الحياة السيئة التى تنتظرهما وتنتظره .

وقد كان من السهل على كل منا أن يمسك بكل حادث على حدة ، ويحلله ويصل فى تحليلاته إلى ما شاء له الله .

فمن قائل إنها تقاليد الغرب (الملعونة) التى أخذت تتسرب إلى مجتمعاتنا عبر المسلسلات وشاشات التليفزيون والسينما ، ومن قائل إنها الدخول فى العصر الصناعى وضريبته المفروضة علينا ، شئنا أم أبينا ، ضريبة التقدم . ومن قائل إنها حالات ـ والحمد لله ـ فردية نتيجة ظروف كل أسرة على حدة وكل تربية على حدة .

وكنت على مهل ، كأنما يجتر الجمل ما اختزنه داخل معدته من مواد ، أحاول أن أهضم هذه الأفكار كلها محاولا أن أعثر لها على جواب أو أدرك اذا كان أحد الأجوبة السابقة هو الجواب الشافى .

ولكنى لم أستطع ..

فلم يستطع أى من الأجوبة السابقة أن يشفى غليلى ، ذلك أنه إذا كان الأمر أمر تربية فردية فى ذلك البيت أو ذاك ، فكثرة توالى الأحداث والبشاعة التى كانت تتم بها واللارحمة واللاهوادة وما يقرب من حالة فقدان الانتماء إلى الجنس البشرى كل هذا يربطه خيط «عام» ، خيط لا تستطيع إدراكه للوهلة الأولى ولا تستطيع إدراكه حتى بعد إعمال طويل للفكر والتأمل كما ذكرت .. شىء خطير عميق دقيق لم نستطع أن نصل إليه كمفكرين أو انثربولوجيين أو علماء نفس .

إلى أن بدأت أعرف هذه القصص والحوادث على حقيقتها وأستفهم وأغرق فى الاستفهام ، لأدرك أخيرا .. وأخيرا جدا .. بدأت خيوط فجر المشكلة تتبدى ، فقد اكتشفت أن هناك فى تلك العائلات عاملا مشتركا واحدا لا يتغير فيها جميعا ، ذلك هو الأب أو بالأصح غياب الأب ، أو على وجه أكثر دقة دور الأب فى ارتكاب تلك الجرائم .

اكتشفت هذا رغم أن كل تلك الحوادث لم يكن الأب فيها هو قاتل الابن أو الأم أو البنت ، بل كان طوال الوقت هو المقتول أو المذبوح أو المدحرج رأسه أسفل السرير ، بينما الزوجة والعشيق نائمان ملء الجفون فوقه .

وهنا بدأت أتأمل المشكلة من زاوية جديدة تماما بل أحسست أنى قد وضعت يدى على قلب المشكلة ، الأب المصرى أو العربى بشكل عام

فقد لاحظت أن كل هذه الجرائم كان الابن فيها أو كانت الزوجة بعيدة عن زوجها ، فهو إما يعمل فى إحدى البلاد العربية ، غائب له سنين يلهث

ليوفر للعائلة ، أكلها وملبسها ومنزلها ، وهو إما فى مصر مثلا، ولكنه يعمل فى الصحراء أو الوادى الجديد، أو على العموم بعيدا عن مقر الأسرة ، فهذا الشاب الذى أطلق عشرين طلقة على والديه كانت أمه مذيعة تعمل فى قطر ، وكان أبوه هناك، ونشأ الصبى وأصبح شابا، وهما بعيدان عنه تماما ولم يعودا إليه إلا بعد أن كبر ودخل كلية الطب .

وانتهت تماما تلك الفترة التى يحتاج فيها الابن إلى أمه وأبيه فترة التكوين النفسى الأولى ، فترة مثلها مثل لبن الأم لا سبيل إلى تعويضها حتى بحنان العالم كله أو نقوده تتدفق من جيب الشاب بعد ما جاوز مرحلة الحضانة النفسية التى تشكل تكوينه الداخلى ونوازعه .

وهذه المرأة التى كان زوجها يعمل فى السعودية وقد ترك لها ستة أطفال معلقين فى رقبتها واستغاثت به أكثر من مرة لتلحقه هناك ، ويعيشوا جميعا معا ولكنه رد عليها بقول : إن تكاليف المعيشة مرتفعة جدا ، وانهم إذا جاءوا وعاشوا معه فلن يوفر مليما واحدا ، وكانت النتيجة أنه صحيح بنى لها منزلا ست شقق وكتبه باسمها، ولكنها هى بنفسها كانت قد ضاعت وتعرفت بسائق تاكسى الذى استولى عليها وعلى ابنتها وعلى أولادها أيضا ، وبالذات على ابنتها الشابة التى عاونتها فى قتل أخيها مع العشيق السائق ودفنوه وذهبوا جميعا إلى السينما بعد هذا .

وحين عاد الزوج قابلوه بجرعة (الاتيفان) مذابة فى الشاى وخدروه وذبحوه هو الآخر.

هكذا سوف تجد خلف كل مأساة من تلك المآسى (غياب) الأب هو السبب القوى المباشر.

وهو ليس أبا واحدا ، هناك أكثر من مليونى أب مصرى يعملون فى الخارج وفى الدول العربية تاركين عائلاتهم فى مصر ، ولا يتركونها لفترة عام أو حتى بضعة أعوام ، ولكن بالسنين الطويلة يفعلون .

قال لى أب من هؤلاء : لقد تركت ابنتى وهى تلميذة فى المرحلة الابتدائية وحين عدت كانت قد أصبحت طالبة فى الجامعة ، وكنا نجلس معا أنا وهى فلا نكاد نجد موضوعا نتحدث فيه .

تقطعت الخيوط تماما ، وبالذات تلك الخيوط التى تربط الإبنة بالأب أو الابن بالأب ، لم يعد يربط بيننا إلا تلك الهدايا التى يتوقعونها بشغف غير زائد مبدين دائما نقدنا للألوان وللأنواع التى اختارها .

تصوروا ...

مليونا أب ، أى مليونا أسرة ، إذا كان متوسط تعداد كل أسرة خمسة يكون المجموع عشرة ملايين معظمهم من الأطفال والصبية والمراهقات والزوجات المحرومات من أزواجهن لفترات طويلة قد تتعدى العام .

كان محتما فى ظل وضع كهذا أن «تنفك» الأسرة تماما ، فصحيح أن الأب لا يلعب الدور الأكبر فى تربية الأطفال بالذات ، وإنما الأم هى التى تقوم بهذا الدور ، ولكن للأب دورا آخر أعمق أهمية بكثير ، إذ هو ليس مجرد ساق ثانية تمشى عليها الأسرة مع الساق الأولى : الأم .. إنه العمود الفقرى الذى يصلب حيل العائلة ويجعل منها كلا متماسكا . هو الرمز للكيان الواحد ، ولذلك

فالأطفال يسمون باسمه ويفخرون بالانتساب إليه : من هذا ؟ هذا ابن فلان بل إنه فى مجتمعاتنا العربية إذا نسب الابن أو الأبنة إلى الأم اعتبر هذا من قبيل السباب ، وأيضا لهذا كله يعتبر الأب أكثر درجة فى الأهمية .

إن الأب هو « البطل » فى نظر أبنائه وبناته وزوجته ، اختر أى طفل فقيرا كان أو غنيا ، راضيا عن أبيه أو ساخطا واسأله : من يختار من بين كل الناس « بطلا » يتبعه ويطيعه ، وستجده يختار بالفطرة بطله : أباه ، وفى ظل قيادته تحل كل المشكلات ، وتنسجم كل المتناقضات ويخرس بجسمه كل الأصوات .

الأم تطعم ، « ماما » تحن وتعطف ، ولكن الأب هو الذى يصنع المثل الأعلى ويقلده الابن دون أن يعرف أو يدرى ، ويرى فيه رمزا لرجولته المقبلة وترى فيه البنت نموذجا لما تحب أن يكون عليه عريسها ومن تحبه ، أما الزوجة فحاجتها للأب لا تقل عن حاجة أولادها ، بل حاجتها إلى الأب ملحة ، حتى لو كان مريضا أو عجوزا أو بلا عمل ، ومن هنا جاء المثل « ضل راجل ولا ضل حيطة » أو ذلك الذى تقوله الزوجة إذا مات زوجها : ياسبعى

فعلا الأب هو السبع وهو الأسد وهو القادر وهو العمود .

وإذا كانت الظروف الاقتصادية قد أجبرت كثيرا من الآباء ـ ملايين الآباء على ترك عائلاتهم والسفر بلاد الله لخلق الله بحثا عن لقمة العيش فإن ظروف بقيه العالم العربى الغنى فعلت بالأب ربما أكثر بكثير مما فعله الفقر ببعض الآباء . فالمال إغراء قوى على مزيد من الربح والغنى . وقد انشغل الأب العربى الغنى بتنمية ثروته وبالأسفار من أجل أعماله المترامية ، شغله المال عن الأسرة ، بل استعاض بالمال عن الأسرة ، وأصبحت أسرته الحقيقية هى ودائعه فى البنوك

التى يطمئن على سعر فائدتها كل صباح ، وقبل أن يتلفظ بكلمة مع أفراد أسرته الحقيقيين وانشغل بأسعار الأسهم والمستندات عن أقرب الناس إليه ، هو صحيح لم يغب فى بلاد أخرى ليعمل ، لكنه حاضر فى بلده بين أهله وأسرته ، ولكنه ذلك الحاضر الغائب ، وما أبشع الأب حين يكون حاضرا غائبا ، فعلى الأقل فى حالة الغيبة . حجته معه كما يقولون ، أما وهو حاضر وفى الوقت نفسه غائب فإن الوضع النفسى لأولاده وزوجته يكون أقسى وأمرّ .

* *

وليس هذا الوضع مقصورا على مصر أو على بلادنا العربية ، إنه وضع العالم الرأسمالى ، حتى الاشتراكى كله ، فكثير من الأسر الأمريكية تعانى من هروب الأب عقب الطفل الأول أو الثانى وحالات الطلاق والانفصال الجسدى أو الفعلى ما أكثرها لقد كنت فى لوس انجليس وأتيح لى الاختلاط بكثير من الأسر الأمريكية ، والمضحك أنى لم أجد بينها رجلا تزوج لمرة واحدة أو زوجة تزوجت رجلا واحدا . هناك حركة تبادل مواقع قائمة على قدم وساق بين الأزواج والزوجات والمطلقات والأرامل ..

حركة يدفع ثمنها ، أول من يدفع : الأولاد .. فتقريبا ينشأ الأولاد بلا أسرة ..

فالزوجة مشغولة بالاستمتاع بزوجيتها ، والأب مشغول بعمله ، والأولاد متروكون للحاضنة أو المربية وللمدارس وللجالسات لأطفال فى أحيان ، وهى كلها أشياء لا تعوض مثقال ذرة ربع معشار الأبوة والأمومة الحقيقية .. ومن أجل .

هذا يهرب الأطفال مبكرا من أسرهم فى الثانية عشرة أو الرابعة عشرة وربما أقل بكثير..

يهربون لأنهم يريدون (أسرة) وإذا كانت أسرهم الحقيقية قد نبذتهم فإنهم يلجئون إلى تكوين «أسرة» أو «عصابات» من الأولاد والبنات يكونون آباء وأمهات لبعضهم البعض..

ومن أجل هذا السبب وحده تكثر التقاليع ويتبوأ شاب معتوه مثل (مانسون) الذى قتل شارون تيت وآخرين، يتبوأ مكانة الأب ويسيطر سيطرة سيئة على الشبان والفتيات كأنه أصبح المعبود الأول. ولنفس هذا السبب أيضا. وبطريقة أخرى يهرب أولادنا فى عالمنا العربى والإسلامى (الغنى والفقير على حد سواء) ويذهبون وينضمون إلى الجماعات الدينية حتى يصبح (الأمير) هو الأب أو رمز الأب أو صورة الأب وكلمته هى العليا، ومن ناحية أخرى يهربون إلى شلل المخدرات والجلسات والطرق المشبوهة التى تصبح بمثابة عائلاتهم أو بالأصح تعويضا عن عائلاتهم الحقيقية.

* * *

وليس الأب الفعلى هو المشكلة فى عالمنا العربى. ولكن رئيس الدولة والدولة هما بمثابة الأب، والرئيس فى العمل يقوم مقام الأب حتى الأم أحيانا تقوم بدور الأب، ولكن هذا كله لا يغنى أبدًا عن الأب الحقيقى إنما هى تعويضات وإسقاطات ومحاولات دائبة من شبابنا وشاباتنا للبحث عن هذا الشبح المفقود: الأب..

وإذا كان معظمنا ساخطين على الحكومات ورؤساء الحكومات وشيوخ القبائل « والعمد » والكبار بشكل عام ، فليس السبب كامنا فى هؤلاء بحد ذاتهم إنما السبب أننا نبحث فيهم عن آبائنا المفقودين ، بحنانهم ورحمتهم، برأيهم السديد وحكمتهم ، بهذا الشعور النبيل الجميل الذى يدفعك حين تحس بالمعزة والمحبة والمودة والإكبار لإنسان ما إن تقول له : ياه دانت زى أبويا !

بالحب ، بالحنان ، بالحسم ساعة الحسم ، بهدهدة الحنان حين نحتاج إلى الحنان ، وتكشيرة العبوس المحب حين نحتاج إلى حب عبوس نبحث فيهم عن آبائنا المفقودين هؤلاء ، فلا نجدهم فنزداد سخطا عليهم ، بينما سخطنا الأكبر ينصب على آبائنا الحقيقيين الذين تركونا بذورا بلا سيقان وسيقانا بلا أوراق ، وأوراقا وسيقانا وبذورا بلا ثمر فكيف يعود لنا أبونا الغائب .

كيف ؟

ذلك هو السؤال .

ملعبة التليفزيون

ـ أعجبتني الحكاية التي قصها علينا الأديب عبد الله الطوخي وهو يروى لنا كيف كان جالسا مع عائلته وفى منزله ثم فجأة سمع ضجة شديدة وصراخا وعويلا فى الشقة المجاورة فأسرع ودق على باب جاره لتفتح له ابنته الباب ويجد الرجل صاحب الشقة ، وهو ضخم الجثة فارع الطول ينهال بقطعة حديد على جهاز التليفزيون فى بيته يحطمه ويفتته قطعا قطعا أمام زوجته وأبنائه وبناته دون مراعاة لاستعطافاتهم ورجواتهم وهم يقولون :

والنبي يا بابا ... بلاش تكسره بلاش ... فيرد عليهم بصوت عال كالرعد قائلا :

أنا مش بابا .. هذا هو بابا « قاصدا جهاز التلفزيون » منهالاً عليه بشدة أكثر تحطيما وتكسيرا ، حتى فتته تماما .

أعجبتني القصة ، لا لأن إنسانا وجد فى نفسه الشجاعة على أن ينهال على جهاز تليفزيون مصرى أو عربى تحطيما وتكسيرا رغم فداحة ثمنه ، ولالأن غيرة مّا قد شبت بين أب حقيقى تزوج وخلف ، وأنجب أولادا وبنات لا ليعيشوا فى التبات والنبات ـ ويستمتع بهم وبصحبتهم ، وإنما ليتسلمهم أب آخر خلقته

التكنولوجيا ليتولى قيادتهم وتربيتهم ويمتص كل أوقاتهم التى كان مفروضا أن يقضوها مع آبائهم وأمهاتهم .

أعجبتنى القصة لسبب قد لا يخطر على البال ، لأنها فى حقيقة أمرها قصة مواجهة صريحة وواضحة وعنيفة بين العصر الذى نحيا فيه والعصر الذى تربى عليه آباء هذه الأيام وأمهات هذا العصر.

منذ فجر البشرية كان الأب هو أول مدرسة يدخلها طفله ليتعلم منه القيم والسلوك والأخلاق ، وربما الحرفة والثقافة والمعرفة والإدراك .

وكان لكل قبيلة من القبائل تراثها الشفوى المرئى الذى تحكيه الجدة لأبنائها وأحفادها ، ليحكوه بدورهم لأولادهم وأحفادهم .

ثم بظهور المسرح ثم الكتاب ثم الجريدة ، بدأت آباء أخرى تشارك الأب الحقيق فى صياغة شخصية وسلوك ومدارك ابنه ، وحين جاءت السينما بعد هذا عمقت تلك المشاركة إلى حد كبير ، ولكنها كانت مشاركة أقرب إلى التعليم التخيلى ، منها إلى الأب أو المدرس أو المربى الحقيق ، ولهذا سميناها نحن العرب « الخيالة » . أما الكارثة الكبرى الحقيقية ، أما الانقلاب العظيم الداهم فقد جاء مع عصر التليفزيون ، ذلك أنه لم يأت ليكون بعيدا عن متناول الأسرة أو محيطها ، وإنما جاء ليحتل صميم المركز فى قلب الأسرة ، وهو مركز ثابت غير متحرك ، وغير صامت ، مركز دائم التحدث والجذب ، دائم الوجود ، عميق التأثير إلى أبعد حد ، حتى أن أطفالنا أصبحوا يحفظون كلمات الإعلانات وأغانيها أكثر بكثير مما يحفظون آيات من القرآن الكريم ، أو ملخص قصة من قصص الأطفال المتداولة .

جاء ساحقا ماحقا فاصلا تماما بين عصرين ، عصر ما قبل التليفزيون وعصر ما بعد التليفزيون عصر أطفال ما قبل التليفزيون وعصر الجيل الذى رباه التليفزيون .

وجاء دكتاتوريا طاغيا أيضا ، انكمش بجواره الأب الحقيقى فى ركن لا يملك حتى أن يتكلم أو يقاطع مايدور فيه، فما أسرع ماترتفع ألسنة أطفاله وأزواجه طالبة منه أن يسكت لأن التليفزيون يتكلم ، أوحتى يقطع عليهم ما يتابعونه ولو بخبر خطير يهم الأسرة جميعا وقد يغير مصير العائلة كلها .

جاء ليكون المتحدث الأول والكل له مصغون ، والنموذج الأول للتصرف وللكلام وللفعل والكل له مقلدون ، وحتى النموذج الأول للتسريحات والتجملات ، وطريقة النطق والكل لا يفعلون سوى تقليده .

وتليفزيون من ، ذلك الذى جاء ؟

بيس تليفزيونا عربيا ، لا صناعة ، ولا اسما ، ولا حتى محتوى ، إذ جاء أحدث ما تفتق عنه العقل الغربى من علم الالكترونيات « والترانزورسيات » « علم تحويل الصوت والصورة إلى كهرباء وبالعكس » وجاء مزودا بمساعد لا يقل عنه خطورة وبأسا هو « الفيديو كاسيت » يجمع كل ما افتقدته العائلة من إرسال التليفزيون العادى » ويضيف إليه أفلاما وقصصا وألعابا وكل ما قد يخطر ولا يخطر على البال .

وهنا وجدنا أنفسنا نحن آباء هذا العصر وأمهاته نواجه عملاقا ولا جنّ ألف ليلة بكل ما لديه من شبّيك لبّيك أنا بين إيديك والعالم كله بين يديك ، والحب بكله وبكافة أشكاله رهن إشارتك والتقاليع تقاليعه لا ينتهى أبدا لها حال .

مفاجأة كبرى ، لم يكن يتوقعها العالم الأول نفسه ، فما بالك ونحن حين جاء كنا لا نزال نحيا ربما فى العالم الرابع أو الخامس .

وأنا أذكر أول مرة رأيت فيها التليفزيون وجها لوجه وكان فى معرض فى القاهرة فى عام ٥٨ ، ومازلت أذكر تلك الدهشة المروعة التى أصابتنى . حين رأيت صورتى « وقد كانت هناك كاميرا تليفزيونية مسلطة على المشاهدين لجهاز الاستقبال » رأيت صورتى بالأبيض والأسود مرتسمة على تلك الشاشة الصغيرة الساحرة . يومها أخذت الأمر أخذ مثقف متحضر ، وقلت إن التقدم البشرى ليس له أبدا من حدود ، وأنى إنما أشاهد معجزة كبرى لهذا التقدم ، أى أننى روعت للتقدم التكنولوجى الالكترونى الذى أنتج هذا الجهاز .

وفى ذلك الوقت لم أنكر أبدا فيما يمكن أن يحتويه هذا الجهاز بعد هذا وينقله من مواد .

وما هى إلا بضعة شهور حتى أصبح هناك إرسال تليفزيونى ، لا فى مصر فقط ، ولكن فى معظم البلاد العربية ، وحتى تدفق على المشاهد العربى طوفان من إنتاج أوربى أو إنتاج عربى يحاول أن يقلد ويمشى على خطى الإنتاج الأوروبى بطريقة لابد للإنسان معها بطول المشاهدة ومداومتها نظرا لروعتها وخبرتها أن يحدث له غسيل مخ إجبارى بحيث تمحى من عقله مفهومات كثيرة ورثها أو تعلمها ، وتحلّ أشياء جديدة تحمل المكونات النفسية والاجتماعية والسياسية لمجتمعات مختلفة عن مجتمعنا تمام الاختلاف .

حتى كاد الأمر فى النهاية ينتهى إلى أن تنمحى تماما من ذاكرتنا كل ما توارثناه من مفهومات وتعاليم وأحاديث أمهات وجدات ونصائح آباء وكبار

ونولّى وجوهنا وعقولنا مفتوحة على مصراعيها لتلتهم بلهفة ذلك الطوفان القادم .

وفجأة أيضا . دون أن ندرى ، نلمح على أبنائنا وبناتنا الأكثر استعدادا للتقبل ، والأقل استيعابا للتراث ، تصرفات لا تبدو غريبة كثيراً عن التصرفات التى تراها معروضة فى تليفزيوناتنا ، ولكنها تبدو غريبة ، تماما إذا ما قورنت بما درجنا عليه نحن من أخلاق وقيم وتصرفات .

وكان مفروضا حينذاك أن تنشأ معركة بيننا ـ نحن الآباء ـ وبين ذلك الوافد المكتسح ، وأعتقد أن معارك فردية وعائلية كثيرة قد نشبت متفرقة هنا وهناك ولكنها كانت دائما معارك خاسرة ، كنا نحن الذين نخسرها ، ذلك أن التليفزيون كان قد ربح المعركة ، تماما وأخذ أولادنا وأجيالنا الجديدة إلى صفه وأصبحنا نحن مجرد قلة «متخلفة» عن الركب ، «متحجرة» أمام التحضر والتأمرك والتأورب ، تعيش فى عصر غير العصر ، وتحاول جرّ أجيال جرارة بأكملها إلى هذا العصر الغابر .

وكان لابد بالطبع يبلغ اليأس ببعض الآباء ، مثل أخينا الذى اندار على الجهاز يدكه دكا ـ أن يحاول حل المشكلة بتحطيم الآلة ، وهو ليس فقط اليأس وأغبى أنواع الحلول . ولكنه يدل تماما على أن هذا النوع من الآباء قد تخلف عن العصر فعلا ، وواجب عليه أن يحطم السيارة هى الأخرى والطائرة ، وأن يعود القهقرى يركب الناقة وينتقل بالحمار .

* * *

فما هو الحل ، يا ترى إذا لم يكن تحطيم كل تلك الأجهزة المتقدمة من تليفزيون وسيارة وكمبيوتر ، وفيديو ... الخ .

الحل بسيط للغاية يا سادتنا الآباء والمربين والحريصين على التراث والتقاليد .

فالتليفزيون فى ذاته كجهاز قمة من قمم الهندسة البشرية ، وآلة اعجاز تكنولوجى ولا عيب فيه بالمرة .

المشكلة هى فقط «محتوى» هذا الجهاز وما يبثه .

وبلادنا العربية قد اشترت من أوروبا واليابان وأميركا ملايين من أجهزة التليفزيون والفيديو ، ولكن ، كان عليها إرسال بعثات «بشرية» لدراسة المواد التى يمكن لهذا الجهاز أن يبثها ، وأثر هذه المواد على عقول كل الأجيال من الأطفال إلى الشيوخ وأثره بالذات على مجتمعات لم تمر حتى بفترة الراديو أو المسرح أو السينما . وإنما فجأة من حديث الجدات وحواديتهم انتقلت إلى عصر البث التليفزيونى وحلقات دالاس ، ومونت كارلوشو .

كان علينا أن نتقى ونحضر «كادرا» من فتيان موهوبين ، يدرسون ما فعله صناع البرامج الممتازة فى التليفزيونات الأخرى ، وبالذات التليفزيون البريطانى والتليفزيونات الأوروبية ، ثم يتعلمون كيف يقدمون المقابل العربى الصالح والشاحذ والمنبه للعقل العربى ، بكافة مكوناته وأجياله ، و«يكتبون» النصوص ، لا أقول ذات القيم الأخلاقية الرفيعة كما يقول عتاة المتفيقهين ولكن تلك التى تستلهم قيمنا وتراثنا وحاضرنا وتصنع منها «فنا» تليفزيونيا حين نشاهده يدفعنا إلى كل ما هو أرفع وأمتع وأنفع .

إنى فى كل مرة أذهب إلى بريطانيا ، ودائما أوقت ميعاد وصولى ، يوم السبت لأستريح فى عطلة الأسبوع ثم أبدأ فى قضاء مصالحى يوم الإثنين بداية الأسبوع كنت ما أكاد أجلس فى حجرتى فى الفندق وأفتح الجهاز حتى أكاد

أتسمر بجانبه لاأريد أن أتحرك، ذلك فى كل برنامج «أتعلم منه» شيئا ممتعا جديدا ، و «أعرف» منه تسلية عظمى ، ما لم أكن أبدا أعرفه ، و «أرى» أشياء كنت أسمع عنها وطالما حلمت برؤيتها رأى العين ، حتى أننى كنت لا أغلق التليفزيون حين يتحول الارسال إلى ما يسمونه جامعة الهواء حيث تدرس مواد الرياضة البحتة والطبيعة والكيمياء والذرة والفلك ، بكل ما تحمل من صعوبة وتعقيدات بطريقة تليفزيونية مرسومة ، ومسهلة بحيث يمكن لأى كائن فما بالك بمن لديه الحد الأدنى من المعرفة أن يتابعها ويستوعبها ويستمتع بما أضيف إليه من معارف ممتعة لا تحققها له أى «ديناستى» أو «دالاس» أو رجل أو امرأة «لستة بليون دولار» اقسم أنى رغم شغفى الشديد بالخروج كنت لا أغادر الغرفة خلال كل عطلة نهاية الأسبوع لأنى لم أكن بصراحة أستطيع قطع متعة المشاهدة الممتعة المفيدة .

* * *

نحن إذن قد استوردنا آلات وبرامج مصكوكة ، ولم نفعل الشيء الذى يجب أن نكون قد قمنا بفعله قبل استيراد تلك المعدات والأدوات والبرامج ألا وهو أن نكتشف مادتنا التليفزيونية نحن ، نفننها ، ونقدمها ونطورها ، ونتعلم كيف نفننها أكثر ونطورها أكثر وأكثر.

وأحسب أننا قد «استوينا» من برامجنا المستوردة، وآن الأوان لننتج نحن برامجنا ، وهى ليست برامج استعراضية ، أو ترفيهية أو مكلفة ، إنها أبسط من هذا بكثير. إنها برامج حية وبسيطة ويشترك فيها المواطنون جميعا يناقشون مشاكلهم . «تقريبا ربع برامج التليفزيون البريطانى مخصصة لمشاكل المدارس

والتلامذة وأولياء الأمور والمدرسين وأوجه التقصير ، من كل حى أو بلد على حدة ، بل أحيانا من كل مدرسة » ، مناقشة أى قضية عامة يختلف أو يتفق فيها المجتمع مع وجهة النظر الرسمية أو غير الرسمية ، باختصار حولوا التليفزيون هناك إلى مجلس شعبى ولمصلحة الشعب ومهرجان شعبى وأداة شعبية لمناقشة الشعب بأفراد من الشعب ولمصلحة الشعب ، وبهذا وصلوا إلى ما يمكن تسميته بكل أمانة إلى الديمقراطية التليفزيونية حتى أصبحت الديموقراطية البرلمانية بجوارها وكأنها مجالس سفسطائية . فالقوة الحقيقية والقرارات الحقيقية وحتى الانتخابات الحقيقية وحلول المشاكل الحقيقية تأتى من التليفزيون ومن الشعب الذى أحال التليفزيون من لعبة إلى جهاز جاد يجمعه فى بوتقة واحدة ويضع السائل والمسئول والحاكم والمحكوم فى حيز واحد وأمام أعين جمهور واع فاحص علّمه التليفزيون كيف يعى وكيف يفرق بين الزيف والحقيقة ، ومباشرة ومن التو واللحظة يحكم ويكون حكمه فى معظم الأحوال عادلا وصادقا ونابعا من قلب الحقيقة والشعب .

فمتى نحيل نحن العرب تلك الألعاب التليفزيونية إلى وسائل حضارية جادة تسوس حياتنا وتقومها وتدفعها إلى الأرفع والأحسن . أم سنظل كالأطفال فى أوروبا ، نستعمل التليفزيون والفيديو وسائل ألعاب وتضييع وقت ومراهقات فكرية وعاطفية وجسدية وحلقات درامية ما أنزل الله بها من سلطان ، بل الحقيقة أنه أنزل بها كثيرا من اللعنات التى للأسف تصيب أبناءنا البرآء وقلوبهم الخضراء الغضة وعقولهم التى ستنتهى فى الغالب إلى أن تصبح لا شرقية ولا غربية ولا أى شيئية .

وحتى لا تكون النهاية أن يقوم كل رب أسرة بأن ينهال تحطيما على جهاز عظيم نحيا فى عصره هو جهاز التليفزيون .

فمتى يحدث هذا ؟

بالله عليكم وأرجوكم متى ؟

* * *

وهوى النجم

أبلغ (مقالة) رثاء قرأتها عن حسن فؤاد كانت رسما كاريكاتوريا لرسام شاب من تلامذة حسن فؤاد فى زميلتنا صباح الخير ، كانت صورة لحسن فؤاد واقفا عاليا ، وكأنما ينظر من الملأ الأعلى وعلى فمه ابتسامته الغريبة تلك الساخرة الراقية المشاركة المتفائلة التى تحمل أقل القليل من المرارة ، كان حسن فؤاد ينظر من عليائه ويقول لزملائه وأصدقائه وتلامذته وأبنائه الذين أقاموا له أروع جنازة على صفحات العدد الخاص من صباح الخير، ويقول ردا على البكاء والنحيب : جرى إيه ياجماعة ... مانا لسه معاكم آهه .. الحق أنى حين قرأت فى الاسكندرية خبر وفاته أصبت بما يشبه (التولة) وفقط حين قرأت العدد ووصلت إلى هذا الرسم ، بكيت ، فحسن فؤاد صديق العمر ، عرفته وأنا طالب طب وقد كان خريجا حديثا من الفنون وذات يوم جاءنى صديقاى محمد يسرى أحمد وصلاح حافظ وقالا لى سنقابل اليوم فنانا عبقريا ، وإلى غرفة على «سطوح» بيت فى المنيرة ذهبنا وهناك وجدت شابا تحس للوهلة الأولى أنه أكبر من سنه وأكبر منا جميعا لاهث الأنفاس فقد كان يعانى من نوبات ربو حادة تنتابه ، شامخ الأنف دائما وكأنما ليلتقط أعلى طبقات هواء الحجرة ، وكان يتحدث ، وتحدث ، وخرج

كلامه غريبا على سمعى ، أنا الذى كنت لا أزال أتهجى أحرف الفن الأولى والأدب ، كلام غريب ، رؤية جديدة تماما لفن جديد وعالم جديد ، ببساطة شديدة يتحدث ، وببساطة أشد يقلب كل مفهوماتنا الرومانسية عن الفن والناس رأسا على عقب ، وخرجنا من عنده بعد الفجر ، ومنذ ليلتها بدأت علاقة من أخصب وأغنى وأروع مامرّ بحياتى من علاقات ، ذلك أن حسن فؤاد لم يكن فنانا من ذلك النوع الذى ينكبّ على أعمال فنية محضة يزاولها ، كان يرسم أو ينحت أو يكتب ، إنه كان أولا وأساسا صانع فنانين ، كان المصانع التى تنتج المصانع ، ولهذا فإن من (خلقهم) حسن من الفنانين ، ومن (طوّرهم) ومن فتح أمامهم أبواب مفهومات جديدة للفن وللحياة ، هؤلاء يشكلون العصب الرئيس للحركة الفنية والأدبية المصرية الحالية والتى قامت منذ الخمسينات ولا تزال تقوم بدورها الرائد إلى الآن .

طوال الأيام التى مضت منذ اختفائه المفاجىء وصورة حسن فؤاد بشكله المتميز وبذكائه الخلاق لا تفارقنى ، فى صحوى ، أومنامى ، وكأن غيابه قد جعله أكثر حضورا ، وأنصع ضوءا ، وأقلب فى الصحافة المصرية فأجد نوره يشع فى كل مجالاتها وعلى لسان أقلام من اتجاهاتها كافة ، ذلك أن «حسن» على كثرة من عرف ، لم يعاد أبدا حتى أشد معارضيه فى الرأى أو الاتجاه ، كان أكبر من أن يكره ، فقد كان يؤمن أن المخالفين فى الرأى ليسوا شياطين أو حقراء ولكنهم بشر ومفهومات ، ممكن بتغيير مفهوماتهم أن يتغيروا ، بل حتى أن يتخلوا عن عيوبهم أو يكفروا عن جرائمهم .. لم يكن يكره أبدا ، حتى أعداءه . غاب عنا حسن إذن ، غاب الجسد الإنسانى السمح الفنان الخلاق ، ولكنه فعلا ، وكما قال الرسم ، لا يزال موجودا فينا كلنا ، حتى فى جيلنا كله والأجيال

التى تلته ـ ربما ـ دون أن يعرفوا ـ هو موجود فيهم وسحره باق لأن الفنانين الذين خلقهم ووجههم باقون يتوارثون رؤاه يبكونه . ولكن الأعظم والأجل أن يستوحوا فنه وشخصه وخصاله وأفكاره ، خاصة وقد تحول من بشر على الأرض إلى نجم فى السماء هوى إلى أعلى ، وأصبح ضوءه أشد وأخلد وأقوى .

وداعا حسن ..

وإلى أن نلقاك .

جـولـة فـى عقـول القـراء

جولة خطيرة ـ وأنا مازلت لم أنته بعد من قراءة كل الخطابات رغم انتهائى من مئات كثيرة منها .. جولة خطيرة داخل العقل المصرى وفى أحيان كثيرة العربى ، وجدتنى غارقا فيها ، جاءت الخطابات ردا على محاورتى التى بدأتها مع الأستاذ خالد محمد خالد حول مفهومه الأخير عن الحكم الإسلامى وتطبيق الشريعة ، والتى أجابنى عنها وتدخل الدكتور فرج فودة مشكورا ثم أخيرا الأستاذ الكبير الدكتور فؤاد زكريا ، وهاهو الأهرام يعقد أكثر من ندوة تضم نخبة ممتازة من علماء المسلمين ومفكريهم وأخيارهم ..

جولة خطيرة لأننى لأول مرة أتلقى هذا العدد الرهيب من الخطابات حول موضوع واحد وتجيئنى خطابات من مختلف قطاعات الشعب بدءا من كبار رجال القضاء والسياسيين والقادة إلى تلامذة المدارس الثانوية وحتى الإعدادية إلى العمال والحرفيين وبعض الفلاحين والمزارعين ، وكم كان بودى ـ ولا يزال هذا قصدى ـ أن هدى تلك الرسائل إلى قادة الأحزاب السياسية ، وبالذات إلى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام والجامعات لأنها بمثابة كشف بالأشعة على الوجدان والعقل المصريين وأخذ فكرة مهمة عن محتوياته ومكوناته ، تلك التى لا يتاح لنا رؤيتها فى معظم الأحيان ، ولندع الموضوع جانبا فسنأتى له

حِالا ، ونتعرف أولا على شكل تلك الخطابات ، فقد لاحظت ارتقاء غريبا فى أسلوب الحوار ، سواء معى أو ضدى ، ومنطقا هادئا فى أحيان ، مشتعل الجذوة فى أحيان أخرى ، ولكن دائما هناك (منطق) مّا وأساس حوار ، وهذا شىء مفرح حقا ، فقد كانت المعارضة للرأى تتخذ شكل السباب والاتهامات فى معظم الأحيان ، أما هذه المرة فشىء غريب ألا أجد خطاب سباب واحدا ليس هذا فقط ، بل إن الجميع ، حتى من يعارضون يفترضون حسن النية فى الكاتب وصدقه فى الإيمان بما يقول ، وأقصى تأنيب يرد هو دعوة الله سبحانه (لهدايته) .

نحن فعلا ـ مهما نقدنا أنفسنا ، شعب متحضر حقا ، ولهذا فإنى أعتقد أن كل الدعاوى الداعية إلى التطرف دعاوى تزرع أو تستزرع فى أرض مصر، ولكنها دائما وأبدا تبقى بلا جذور فإن طبيعة شعبنا تكره من أعماق قلبها التعصب الأعمى المقيت ، فما بالك بالعنف المتعصب أو التعصب العنيف ، إنها موجات ، تثور ـ ربما لأسباب لاعلاقة لها ألبتة بالقضية أو العقيدة أو الدين، ولكن سرعان مايثوب الشعب أو طائفته إلى الحكمة وتغلب عليه طبيعته المتحضرة . ليس عبثا إذن أننا أقدم أو من أقدم الشعوب الموجودة على سطح الأرض ، والقدم هنا هو العراقة البشرية ، وتراكم الخبرات والمعارف والثقافات ، بحيث تترسب طبقات التحضر بعضها فوق بعض ، وتؤدى فى النهاية إلى إنساننا اليوم، ذلك الإنسان الذى ماذهبت إلى بلد أوروبى أو غير أوروبى وسألت الشخص أو الأشخاص الذين زاروا مصر عن أحسن ما أعجبهم فيها ، ولدهشتى كنت أسمع كلمة الأهرام أو أبى الهول أو المتحف أو أسوان الجميلة ، ولكن الإجماع على أن الشعب المصرى ودماثة طبعه وحلو معشره ورغبته المستمرة فى محاولة مساعدة الغير والشهامة فى

معاملة الغريب ، الإجماع على أن الشعب المصرى هو أجمل مافى مصر ، وحتى حين حاولت مرة أن أختبر حماس كاتب سويسرى زار القاهرة ومكث فيها شهرا وقلت له : إن النظافة فى القاهرة سيئة كما لابد أن لاحظت ، أجابنى إجابة غريبة قائلا : إن القذارة فى القاهرة موجودة فى الشارع والحارة ، ولكن الشوارع هنا (يقصد سويسرا) نظيفة جدا كما ترى فى حين أن القذارة موجودة داخل العقول ، أما شعبكم فعقوله من الداخل أنظف بكثير من أية سويسرا

وأستطيع أن أقسّم تلك الخطابات تقسيما رئيسيا وأقول : إن أكثر من ستين فى المائة منها تصور أنى ضد تطبيق الشرع الإلهى وأخذ يسوق حججه (لإقناعى) على هذا الأساس ، بالتفصيل والتحديد وأحيانا فى خطابات من خمسين صفحة !

أما الذى دهشت له حقا فهو أن هناك نسبة كبيرة جدا فهمت تماما ما أعنيه فيما ذهبت إليه وراحت بدورها تسوق حججها للدلالة على رأيها ، وكأن كلا منهم يكتب مقالة أو يتصور أن خطابه سينشر ، وكم كان بودى أن أفعل مع هؤلاء وهؤلاء ، ولكن العملية مستحيلة تماما ، فالكم هائل والاستحالة مؤكدة ، أجل أدهشنى أن عددا كبيرا جدا من الناس أفرج هذا الحوار الذى دار بين الأستاذ خالد محمد خالد وبينى قد أفرج عن آرائهم التى كانوا يحبسونها إما خوفا وإما ترددا ولا مبالاة ، وإما عدم إدراك لخطورة المشكلة وأبعادها ، هؤلاء أسعدهم كسر هذا (التابو) أو المحرم الذى كان يحول بين الإنسان وبين مناقشة ــ مجرد مناقشة ــ قضية تتعلق ليس فقط بمجتمعه الحاضر وحياته ، بل به هو شخصيا وبعائلته وأولاده ومستقبل بلادنا القادم كله ، كيف يمكن لقضية كهذه أن

توضع موضع التحريم بحيث يعتبر أى متصد لها كافرا أو ملحدا أو زنديقا ، وكأن بعض الناس قد أقاموا من أنفسهم أوصياء على المصريين يفكرون لهم ويشرعون ويفرضون الرأى بالقوة أو بالكثرة غير عابئين مطلقا بأن هناك مواطنين آخرين مخلصين مثلهم تماما . ومؤمنين مثلهم تماما ، ولهم نفس الحق فى قول الرأى أو مناقشة الرأى إذا قيل ، بل مناقشة حق هؤلاء الناس فى (فرض) الرأى ، واتهام من يعارضه بالخروج من جنة الدين وسماحة الإسلام .

وبالمناسبة أقول : إن هذا التطرف فى فرض الوصاية والتعصب على المسلمين يقابله فى الناحية الأخرى تعصب من بعض المتطرفين الأقباط وهذا وإن بدا طبيعيا ، إلا أنه فى النهاية لا يقل سوءا عن التطرف فى الناحية الإسلامية .

* * *

أما الذى لفت نظرى حقا فهو أن معظم الخطابات التى شابها التشنج والعصبية جاءت من بعض المصريين الذى يعملون فى دولة بترولية عربية وبعض مواطنى تلك الدولة . وهذا شىء فى نظرى لا غرابة فيه بالمرة، فإن الطريقة التى يطبق بها الإسلام وينادى بتطبيقه فى تلك الدولة طريقة متشنجة متعصبة لا تأخذ من الإسلام سوى قشرته الظاهرية من لباس أو قناع وتترك روحه ورسالته الإنسانية الحضارية الكبرى جانبا ، لأن الإسلام لو طبق تطبيقا حقيقيا سليما لتقوضت أنظمة كثيرة ترفع راية القشرة الإسلامية وتتجاهل جوهره العظيم .

ومن أمثلة تلك الخطابات عدد منها يسائلنى باستنكار كبير : كيف أجادل فى تطبيق شريعة الله وأنادى بتطبيق تلك القوانين الوضعية التى يضعها البشر .

وهذا هو لبّ الموضوع ، فإن أحدا لا ينادى أبدا بعدم تطبيق الشريعة الإلهية الإسلامية ، إنه يكون مجنونا لو فعل ، فالشرائع السماوية كلها وعلى رأسها الاسلام فوق أنها أمر الله سبحانه وتعالى إلا أنها لم تأت إلا لتقيم العدل الاجتماعى بالمساواة التامة بين البشر ، من هو المجنون الذى يعترض على شريعة الله ؟ معاذ الله . إنما المشكلة أيها الإخوان العاملون هناك أن الشريعة حقا وصدقا شريعة الله، ولكن من يطبّق تلك الشريعة ؟ ، مرة أخرى أتساءل : من سيطبق أو يطبق تلك الشريعة ؟ أليسوا هم البشر؟، أليس هم أناس مثلى ومثلك حتى لو كانوا من فطاحل الفقهاء.. إذن الشريعة شريعة الله، ولكن التطبيق يبقى دائما وأبدا من صنع البشر ومن أفعالهم ومن آرائهم وبهذا لا يكون للمطبق نفس قداسة الشريعة ، فالشريعة سماوية والمطبق بشر ، عرضة لأخطاء البشر وأهواء البشر.

ودعونا نأخذ مثلا طازجا وأخيرا .. الأستاذ الكبير خالد محمد خالد .. وهو من هو ممن لا نشك لحظة فى صدق دعواه واجتهاداته ، يقول : إن تطبيق الشريعة لابد أن يحتوى على أن تكون الأمة مصدر السلطات ، وأن المسلمين يختارون ممثليهم وحاكميهم بالانتخاب الحر المباشر ، وأن الحقوق الديمقراطية الكاملة مشروعة وواجبة للمواطن المسلم وغير المسلم ، مثل حق إبداء الرأى وحرية العقيدة إلى آخر مايعطى ما يسمى بالحقوق الديمقراطية للمواطنين كافة فى العالم المتحضر الآن . ويجىء شيخنا الكبير الأستاذ عمر التلمسانى ليعطى تفسيرا مختلفا تماما لتطبيق الشريعة ، باعتبار أن فكرة الديمقراطية نفسها فكرة غير إسلامية ، وارجعوا إلى مقاله فى جريدة الشعب المنشور حول هذا الموضوع لتجدوا أنه لا يتناقض فقط مع آراء الأستاذ خالد محمد خالد، ولكنه يكاد

يعارضها تماما جملة وتفصيلا .. ثم نقرأ للأستاذ الدكتور عمر عبد الرحمن كتابا يقول شيئا ثالثا مختلفا تماما مع الأستاذين الجليلين ، وعماد هذا القول أن الأمة ليست مصدر السلطات ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو مصدر السلطات بمعنى أن القرآن الكريم هو مصدر السلطات ، ولكن الدكتور عمر لم يخبرنا عمّن سيفسر لنا ما ورد فى القرآن الكريم من أحكام ، حتى لو كان هو المفسر ، أليس هو بشرا ، أليس هو مواطنا مصريا ، أليس هو واحدا من شعب كبير له نفس الحق أن يختار من يحكمه وأن يلزم الحاكم بالشورى ويحاسبه ، أم أن الحاكم سيكتسب ــ فى رأى الدكتور عمر عبد الرحمن ــ سلطات إلهية بحيث لايمكن محاسبته ، وهو الأمر الذى لم يزعمه أبدا خلفاء النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذين قالوا وهم أحباء النبى وأصدقاؤه وخلفاؤه والأعمدة التى قام عليها الإسلام نفسه ، إن رأيتم فينا اعوجاجا فقومونا ، إذن هم لم يأتوا باسم حق إلهى أن يحكموا المسلمين ، وإنما جاءوا نتيجة ترشيح من الأمة أو من أمير المؤمنين الأسبق ولم يصبحوا خلفاء وأمراء للمؤمنين إلا ببيعة (أو انتخاب حر مباشر) قام به كل مسلم فى المدينة آنذاك .

* * *

من هذا الاختلاف ترون أيها الإخوة أن القضية ليست شريعة الله ، فهذا أمر لا خلاف عليه ، إنما القضية هى التفسير البشرى ، والتطبيق البشرى لتلك الشريعة السمحاء واختلاف البشر لأنهم بشر ولكونهم بشرا فى اجتهاداتهم لتطبيق تلك الشريعة ..

وهذا هو عين ما تساءلت عنه فى مقالى الأول للأستاذ خالد محمد خالد : شريعة من نطبقها ؟

لم يكن تساؤلا حول المبدأ الإلهى الذى لا نقاش فيه ، وإنما عن الاجتهادات والأهواء البشرية فى تطبيق تلك الشريعة ، فجعفر نميرى (طبق) الشريعة وأرغم السودانيين أو بعضهم على الأقل بأن يبايعوه (إماما) لمسلمى السودان مدى الحياة ، وفرح كثير من الدعاة المصريين أن نميرى قد هداه الله وطبق شريعته ولكن تقويض حكم نميرى لم يوقفه هذا التمسح والتسربل بالدين . ذلك أن الدين ليس تكأة للطغاة والحاكمين يتسترون وراءه ويعيثون بعد هذا فى الأرض فسادا الدين العقيدة هو أسمى مايفعله الناس بحياتهم ، ولا يمكن أن يكون وسيلة طاغ أو ديكتاتور .

فى سياحتى تلك داخل عقول كثير من القراء أدركت واكتشفت أن ثمة غسل مخ خطيرا قد حدث ويحدث للإنسان المصرى والعربى ، وأن هذا الغسل قد قام به بعض الدعاة الذين تربعوا على عرش وسائل الإعلام ، ورغم استنكارهم للحضارة الغربية ومساوئها فإن نفس وسائل تلك الحضارة وعلى رأسها التليفزيون هى التى اتخذوها وسيلة لغسل مخ المواطنين الطيبين البسطاء الذين يعبدون الله عن حب ، وليس عن رهبة ، وعن رغبة فى طاعته وليس خوفا من داعية أو تنظيم .

ان التليفزيون فى عصرنا الحاضر أصبح هو صانع عقل المواطن وتفكيره فالخطابات التى جاءتنى كان معظمها يردد كالببغاء ما ألقى فى عقله من مفهومات من خلال التليفزيون ، والغريب أن تليفزيوننا مثله مثل بقية التلفزيونات العربية

لا يتيح الفرصة للرأى الآخر ، أو حتى للمناقشة أو حتى الاستفسار ، انه يجعل الناس تجلس هكذا كالمسلوبة العقل والإرادة تستمع لما يلقى عليها ويحفظ لها (بتشديد الفاء) وكأنهم أطفال فى كتاب . وهكذا يتعود المواطن على أن يستقبل فقط ويردد فقط ويكف عن التفكير تماما انتظارا للداعية أن يفكر له وأن يعطيه الأوامر ، إنها مأساة حقيقية صنعتها وسائل الإعلام والنقود المنصبة على الألسنة والأقلام ، والهدف فى النهاية ، أقولها لكم وأهتف بها : تقويض مصر ، مصر الإيمان ومصر العقل ، مصر العلم ومصر الثقافة ، ليتيح لهذه الدولة أو تلك أن تحتل مكانتها فى قيادتها العالم العربى والإسلامى . ولكن.. عبثا ما يحاولون فالزبد سيذهب جفاء وما ينفع سيبقى ـ إن شاء الله ـ فى الأرض ، أرض مصر العامرة ياتابعى وزارات الإعلام فى بعض الدول التى تهب رياحها الشرقية تحمل لنا التخلف والجمود ، وتريد أن ترجع بنا القهقرى عسانا نتأخر وتتقدم هى فلننتبه إلى مايراد بنا ، وللأسف على أيدى بعض المصريين. مرة أخرى أكتفى بالإشارة هنا ، فالمسألة قد زادت على حدها ، وتدخل تلك الدولة للعبث بالإنسان المسلم المصرى والعقل المصرى قد زاد على حده ، ولابد معه من وقفة صريحة واضحة نضع فيها النقط فوق الحروف ، ونخرج النقود من الجيوب ونتفحصها لنعرف فى أى بلد صكت .

إننا مسلمون أبًا عن جدّ ، مسلمون بالبلاد ومسلمون بالاختيار ، ولا نريد العبث بإيماننا هذا ، ونرفض هذا العبث ونَدينه ، والمسألة فى حاجة إلى صرامة مطلقة نعالج بها هذا الخطر القادم من الشرق ..

ويا إذاعتنا ، ويا تليفزيوننا ، ويا صحافتنا ، انتبهوا حتى لا تكونوا شركاء ولو بالجهل بما يراد بنا ولنا .

أسـرع يابنـى .. وصـوّر

بعيدا عن القضايا التى أصبح الحديث فيها «محلّك سر» بعيدا عن المناوشات الدائرة بين الحكومة والمعارضة ، وبين الأقلام الصحفية والحكم بعيدا عن الحديث عن الديمقراطية وعن السلفية والخلافات الطاحنة حول قضايا ما أنزل الله بها من سلطان ، بعيدا عن (الحديث) عن الوفد الفلسطينى الأردنى واحتمال قبول أمريكا ورفض إسرائيل ، وتحسن العلاقات وسوء العلاقات ، بعيدا عن الغلاء الذى يكوى القلوب والجيوب ، والتسعيرة التى تظهر وتختفى كعفاريت الظهر ، والخرفان المذبوحة على عتبة وزارة (التعليم) ، والحمد لله أنها ليست على عتبة وزارة البحث العلمى والتكنولوجيا ، بعيدا عن أزمة المسرح وأزمة الإبداع وأزمة الأخلاق ، وقضية سميرة مليان .

بعيدا عن هذا كله ..

لا أعيش قرير العين رائق البال ، أنام نوم مستريح الضمير ، فالواقع أنى لا أنام إلا لمامًا ..

ليس لأنى قلق البال ولا مؤرق الضمير والحمد لله .
ولكن لأن نفق أكتوبر تحت رأسى مباشرة .. !

منذ ثلاثة أشهر والدق شغال. طوال الأربع والعشرين ساعة وبمختلف أنواع الدرجات والنغمات ، فهناك دق متتال كطلقات المترليوز يقوم به حفار الاسفلت الصغير ذو الضجيج العالى ، وهناك دق المدفعية الثقيلة من غارسات الخوازيق الخرسانية ودق المطارق والمعاول ، وأكوام الرمل والزلط ، وهى تنحدر فى شلالات ، ضجة تعمى العيون والآذان ، ناهيك عن ضجيج الأوامر وصخب العمال والأنوار الملتهبة الضوء التى تخترق الشيش وتخرق الستائر وتفتح بالقوة أجفان العيون .

الحقيقة كانت الضجة فى أول قدومها مفاجأة أقلقت مضاجع بضع مئات من سكان شارع النيل الذين شاء لهم الحظ أن يجاوروا ويطلوا على النفق المزمع إقامته .

كانت من المفاجأة والصخب بحيث كنا لا ننام ليلا أو نهارا ، وكأننا فى حرب ذات غارات متصلة ، ومادامت حربا فلتكن الهجرة ، وهاجرنا إلى الإسكندرية ، وصحيح أن شارعنا هناك لم يكن به نفق ولا حرب فقد كان دائم الضجة ، ضجة غير معلومة المصدر. ومن الصباح إلى الصباح وكأنها ضجة الجان الذى يقولون أنه يسكن أرض المعمورة .

ثم عدنا أخيرا متمنين أن تكون الأعمال الإنشائية الثقيلة فى النفق قد انتهت ، ولكن لاشىء كان قد تغير، اللهم إلا اختلاف النغمات وبروز بضع آلات جديدة فى أوركسترا الضجة اللاهارمونى .

وكنت منذ بدأ العمل قد أغلقت جميع النوافذ والمنافذ التى تطل على

موقع العمل دون فائدة فكل شيء كان يصل واضحا تماما وكأن الحفر فى الشقة .

وأول ليلة بعد العودة حاولت النوم بلا أى اعتبار للضجة فقد أصبحت الضجة ملازمة لصحونا ومنامنا بطريقة لا أعرف ماذا يحدث لنا ولنومنا إن ـ فجأة ـ سكتت ـ الضجات كلها .

إلى الساعة الثالثة صباحا لم أستطع النوم ، ومادام لا فائدة من النوم فلتكن اليقظة ولتكن القراءة ، ولكن الضجة أوقفت عمل خلايا الاستيعاب هى الأخرى فأغلقت الكتاب ، وقمت أتجول فى الشقة شبه المظلمة التى تبدو متوهجة الضوء من فرط ما يصلها من ضجيج نهارىّ الطبيعة جحيمىّ الوقع .

ثم كان ما ليس منه بد ، وفتحت نافذة مطلة على موقع العمل فى النفق ، فوجدت بصرى يتوه والأمكنة والأضواء والآلات تتخاطفه وتتسابق لتكون أول ما يقع عليه البصر.

نهار كامل موجود فى قلب الليل البهيم . رجال رائحون غادون يبدون من العلو الذى كنت أنظر منه كائنات صغيرة دقيقة ككائنات (جوليفر) فى جزيرة المغامرات التى سافر إليها . آلات هائلة الضخامة حتى أن احداها كان يبلغ ارتفاعها سبعة طوابق من عمارتنا ، وحين فتحت النافذة وجدتها أمامى مباشرة أكاد أمد يدى فألمسها .

كان ذلك منذ حوالى أسبوع وكان النفق قد تم تبطين جانبيه بالخرسانة المسلحة ، وجارى العمل فى حفر مجرى النفق وإزالة الأكوام الهائلة من التراب والطين ، إذ كان تكتيك العمل على ما بدا لى هو عمل سقف خرسانى على

قواعد خرسانية مدكوكة، ثم إزالة ماتحت السقف من أتربة وطين لايجاد مجرى النفق بطول آلاف الأمتار كانت أكوام التراب الطينى من الضخامة بحيث تكون جبالا وتلالا لا يستطيع العمال تسلقها ، وكان إذا أراد عامل أو ملاحظ أو مهندس أن ينتقل من حيث الأرض التى تحفر إلى قمة التل يدلى له سائق جهاز الحفر الكبيرذى اليد التى لها أصابع خمس تغترف بها التربة وتملأ عربة ضخمة فى عشر قبضات من قبضاتها العملاقة كان سائق الجهاز يدلى اليد إلى العامل أو المهندس حيث هو فى القاع ثم (يغرفه) ويصعد به أكثر من عشرة أمتار ليصبح فى القمة فينسل من القبضة وكأنه بطلة فيلم (كينج كونج) حين كانت تتسلل من بين أصابع يده وكأنها فى حجم الدودة .

لم أفطن إلى أن النهار قد طلع إلا حين واجهتنى الشمس الحمراء وهى تشرق ،وكأنها جهاز إضاءة أحمر جديد أضافه العاملون فى النفق فجأة .

كنت قد أمضيت ثلاث ساعات لم تتسرب إلىّ فيها لحظة ملل واحدة، وقد امتصنى ما يدور أمامى تماما ، ليس الجهد الهائل فقط ، ولا الآلات العملاقة ، ولا هذا التفاهم الغريب القائم بين العامل والالة ، ولا بين العمال والملاحظ ، ولا بين هؤلاء كلهم والمهندس أو المهندستين ، كل يعرف عمله وكل يتحرك إليه وبه ، ولا كلام ولا قهقهات ولا أجيب لك شاى ولا توقف لشرب سيجارة أو نفس بورى ، عمل دءوب تقوم به تلك الكائنات الدقيقة على وقع هدير آلات لا تتوقف وكأنها موسيقى الجيش النجاسية تلهب الحماس فى ذلك الجيش الدقيق المحارب ، وبعدها لم أنم ، وصرت إذا عدت من عملى أنام بضع ساعات بالنهار لأسهر معظم الليل

واقفا عند فتحة النافذة، لا أتفرج فقط ولا أنتشى، وإنما أتامل وأتفلسف وتروح بى الأفكار وتجىء، كم قال الآخرون وحتى أنا نفسى قلت إننا شعب يميل إلى الكسل، وأننا بلا إرادة، وأن هدفنا أن نأكل ونحشى البطون ونتزغزغ بالمسرحيات والأفلام وتقرقش، ما أراه هنا شعب آخر، ذلك الجانب الأكبر العظيم من الشعب المصرى الذى حين يحدد له الهدف يخلق الوسيلة وحين يضع الهدف أمامه وتصبح الوسيلة فى يده ينطلق بأقصى ما يستطيع الكائن البشرى أن ينطلق.

حس جدا أن الرئيس حسنى مبارك أصر على تحديد يوم ٦ أكتوبر موعدا لافتتاح النفق فقد ألهب هذا التحديد ظهور العاملين.

وجعل الشركة المنفذة وهى على ما أعتقد ـ لأنه من مكانى لا أستطيع أن ألمح لافتة الشركة القائمة بالإنشاء والتنفيذ ـ شركة المقاولين العرب ـ جعل الشركة وجعل عثمان أحمد عثمان يستعيد أمجاده التى حققها فى السد العالى ولافتاته المشهورة باق من الزمن مائة يوم وتسعة وتسعون يوما .. إلى آخره، ويتركه من كتابة الكتب وبالذات ذلك الكتاب اللقيط (أنا والعهد البائد) ويعود إلى عمله الأصلى ينشئ المشروعات ويقبل التحدى وينجز.

لقد قرأت بحثا للدكتور عبد الكريم درويش رئيس أكاديمية الشرطة عن مشكلة الإدارة فى مصر، وقد وضع الدكتور عبد الكريم يده على بيت الداء فى الوجود المصرى. وهو أن تخلف الإدارة، بل وأحيانا انعدامها وراء الكثير بل كل مشاكلنا الاقتصادية، أعطنى إدارة جيدة أعطك إنتاجا وإنجازا هذا هو السر وراء نجاح كثير من شركات المقاولات المصرية مثل شركات عثمان أحمد

عثمان والعبد وحسن علام ومنتصر

وحسن أن التأميم قد أشرك أصحاب هذه الشركات فى إدارتها وإلا كانت قد انتهت كشركات منجزة منتجة

* * *

بالامس ، وفى ظرف أيام لا تزيد عن الأربعة فتحت النافذة لأجد ويا لدهشتى أن كومة من التراب الطينى الهائلة قد أزيلت تماما وسويت الأرض بتدرج محسوب بالملليمتر، بل وسفلتت وبلطت بالأسمنت المسلح ، ثم بدءوا ، ولست أدرى ، لماذا يضعون أسياخا من الحديد فوق الأرضية المسلحة ، فى أربعة أيام فقط صار الشارع نفقا حقا ومسقوفا ..

ايقظت أبنى بهاء خريج معهد السينما هذا العام وطلبت منه أن يبقى معى فى النافذة بعض الوقت ليتفرج .. وبرما بإيقاظه من نومه بعد يوم هائل فى عمله لاتمام مشروع تخرجه وقف متأففا بعض الوقت ثم أعجبته الآلة ذات الأصابع الخمس العملاقة وما تفعله ، ثم اندمج فى المشهد كله .

قلت له : لماذا لا تأخذ كاميرتك وتنزل إلى الشارع وتصور ما يدور وتصنع (الكلوزات) للعمال الصعايدة الأبطال وترينا المهندسين فى لحظة عمل، وليس كما تراهم فى ادوار أنيقة فى سينما لا علاقة لها بالواقع ، لماذا لا ترصد التقدم المذهل الذى يحدث للعمل كل يوم وتسجله بالفيديو .

قال بعد تفكير ، صحيح فكره .. بس دى حتى ما تنفعش فيلم تسجيلى .

قلت له: ياابنى .. دعك من الأفلام والأنواع والأوهام إنه صحيح لن

يكون فيلما تسجيليا ،ولكنه سيكون له عندى وعند الكثيرين أهمية لا تقدر بمال .

قلت كلما انتابتنى فترة يأس من أحوالنا ، كلما بدأت ثقتى فى الإنسان المصرى تهتز ، كلما أحسست بالروح تصل الحلقوم ، كلما هاجمنى الشعور بأن لا فائدة وأن مصر حالة ميئوس منها ، كلما سخطت على نفسى والآخرين كلما بدأ إيمانى بمصريتى يتزعزع كلما حدث لى شىء من هذا ، سأدير ذلك الشريط وأعود أديره وأستعيد معه ثقتى بمصر القيمة ومصر الإنسان .

أسرع يا ابنى واحمل كاميرتك . وصوّر

فما أشد حاجتنا اليوم أن نرى أنفسنا فى لحظة عمل ، وحقيقة فنحن لا نراها الآن إلا فى لحظات كلام وكتابة وكلام ومؤتمرات وخطب ولجان . أسرع يا بنى .. وصور ! .

إيزيس بين الحكيم ومطاوع

إيزيس آخر مسرحية كتبها أستاذنا توفيق ، منهيا بها عهده « الأوروبى » فحين ذهب توفيق الحكيم إلى باريس ، وشاهد المسرح هناك ، بهرته فكرة استعانة كتّاب المسرح المحدثين بالأساطير الإغريقية القديمة حتى إن مأساة أوديب كتبها ثلاثة أو أربعة كتّاب محدثين ، فقال لنفسه : لماذا ـ ونحن أيضا لدينا أساطيرنا ـ نستعين بها فى خلق مسرح (عربى) وهكذا استعان بالله وكتب مسرحية (أهل الكهف) ، والحق أن المسرحية فى أول ظهورها أحدثت دويا شديدا ، ليس فقط فى الأوساط المسرحية ، ولكن وهذا هو المهم فى الأوساط الأدبية نفسها ، تلك التى كانت تعتبر المسرح نوعا من (الهلس) و (التهريج) لا يدخل تحت باب الأدب ، حتى لوكان الممثل هو العملاق جورج أبيض ، أو السيدة روزاليوسف وحتى لوكانت الرواية من أمهات المسرح الأوروبى .

احتفلت الأوساط الأدبية بهذا الحدث الكبير حتى أن الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ لاحظوا الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ تلقفها بترحاب هائل وأثنى على مؤلفها ثناء عاطرا مع أن الرواية مأخوذة من النص القرآنى الذى كان لا يستطيع أحد أن يجرؤ على المساس بحرفيته ، وأهل الكهف ، فى سورة

الكهف ، ليس فيها (بريسكا) ، ولا فيها امبراطور رومانى ، ولا كل تلك الأشياء التى خلقها توفيق الحكيم تخليقا .

بعد سايزيش نفض يده من فكرة الأساطير القديمة هذه ، ونتيجة لظهور (عودة الروح) ، ويوميات نائب فى الأرياف ، بدأ الحكيم يغوص شيئا فشيئا إلى قلب المجتمع المصرى يستخلص منه مأساته أو ملهاته الحديثة وكانت مجموعة (مسرح المجتمع) خير تجسيد لهذا .

كانت الدنيا قد تطورت ، وكان جيل آخر من كتاب المسرح قد ظهر فتبنى بعضهم قضايا طبقية ، وبالذات قضايا الطبقة الوسطى وأزماتها ومشاكلها وملهاة وجودها وتعاسته وكان صاحب هذا الاتجاه نعمان عاشور بروايتيه المغناطيس والناس اللى تحت .

ثم جذبنى المسرح بقواه المغناطيسية الخارقة وكنت قد كتبت مسرحية من فصل واحد اسمها «ملك القطن» ، وأحلت قصة «جمهورية فرحات» إلى مسرحية ، ولم أكن إلى لحظتها أتصور أنهما يمكن أن تمثلا على خشبة المسرح فذهبت بهما إلى الصديق الاستاذ أحمد حمروش ، وكان آنذاك مشرفا على المسرح القومى ، ومشرفا على سلسلة كتب للجميع ، وطلبت منه أن ينشر المسرحيتين فى كتاب للجميع ، فإذا به بعد يومين يتصل بى ويقول لى : نشر إيه ده اللى انت جاى تقول عليه ، هذه مسرحيات لا بد أن تمثل .

وهكذا أدرجت المسرحيتان فى خطة المسرح ، وفعلا جسدتا ، أخرج الأولى الأستاذ الكبير نبيل الألفى ، والثانية المعلم الأستاذ المرحوم فتوح نشاطى ، وأشهد أن ليلة افتتاح العرض كانت من أعنف وأخصب التجارب

التى مررت بها فى حياتى إلى درجة أن وقفنا أحمد حمروش وأنا نبكى فى نهاية ملك القطن ، والمرحوم شفيق نور الدين يخبط (الأرض) التى تمثلها خشبة المسرح ويقول عن القطن .. اسيبه يتحرق ازاى يا ناس .. دا تعبى .. دا شقاى .. دا عمرى وعرقى وعيالى . كنا نرى هذا المشهد كل ليلة وكل ليلة يبكينا المشهد .

وقيل يومها إننى استطعت لأول مرة أن أجعل من الفلاح المصرى بطلا مسرحيا كما استطعت بعدها أن أجعل من فلاحة (الترحيلة) فى الحرام شخصية تراجيدية ترتفع إلى مرتبة التقديس .

المهم أننى بعد هاتين المسرحيتين .. ونظرا للنقد الذى وجه إليهما باعتبارهما مسرحيتين من فصل واحد وأنى قادر على كتابة مسرحية طويلة كتبت مسرحية (اللحظة الحرجة) من ثلاثة فصول ، وكانت المسرحية أيضا صدمة ، فقد خاف بطلها فى اللحظة التى كان يجب أن يؤدى فيها واجبه وأن يدافع عن أبيه الراكع يصلى فى سلام، بينما الجندى البريطانى يشهر عليه السلاح ، قيل لى أيامها كيف تجعل من الرعديد بطلا ، ولكن الدكتور لويس عوض كان له رأى آخر فقد كتب مقالا رائعا فى جريدة الشعب يقول عن المسرحية إنها دراسة فى الخوف ، خوف الغازى ممن يغزو أرضه وخوف الذى غزيت أرضه من الغازى .

ولكن بعد مسرحية اللحظة الحرجة توقفت لأننى أدركت أنى إنما أكتب على النسق الأوروبى ولا أفعل سوى تقليد راسين وموليير وأحيانا فيدو .

وأصبح هدفى مثلما عثرت أو اكتشفت القصة المصرية العربية القصيرة

مضمونا وشكلا وطريقة أن أكتشف مسرحنا المصرى العربى المتميز داخل حياتنا .

وكتبت سلسلة مقالات فى مجلة «الكتاب» عام ١٩٦٣ بعنوان نحو مسرح مصرى عربى مبشرا بمسرح يستوحى الواقع المسرحى الحى الذى يعيشه شعبنا من «ذكر» و«زار» وربابة شاعر، وسامر، وجلوس على المقاهى، وحتى الجنازات والمعازى، مظاهر لظواهر مسرحية، من الواجب أن نستكشفها ونحيلها إلى دراما عصرية حديثة تعبر عن ذاتنا المسرحية الخاصة، وبهذا بدلا من أن نعيش عالة على التراث المسرحى الأوروبى، نشرت المسرح العالمى بمسرحنا الخاص، وعارضنى معظم النقاد فى هذا الاتجاه، وقالوا لا يوجد شكل مسرحى عربى أو مصرى، وإنما الموجود شكل عالمى ضع منه ما شئت من مضمون مصرى يصبح مصريا، ولما كنت أؤمن أن الشكل لا ينفصل عن المضمون فى العمل الفنى. فقد كتبت «الفرافير» كنموذج لهذا النوع من المسرح، وكان نجاحها الجماهيرى يدل على أنى أسير فى الطريق الصحيح.

وهكذا حدث للمسرح المصرى زلزال آخر، ومن الطريف هنا أن أذكر أنى عرضت (الفرافير) على جميع مخرجى مصر فكانت إجاباتهم : هذا ليس مسرحا، الوحيد الذى أدرك ما فى داخلها من جواهر مسرحية شعبية ومصرية وعربية كان هو كرم مطاوع وكان لا يزال قادما من بعثته فى إيطاليا، وليس المهم القدوم من البعثة، المهم أن هذا الشاب مخرج موهوب قلّ أن ترزق مصر بمثله .. إن باستطاعته أن يخرج الجريدة اليومية لو يشاء، باستطاعته أن يصنع ما يشاء.

ولكن فيه عيبا واحدا خطيرا . أنه يدرك هذا ، ويدرك أنه كمخرج يفهم في المسرح أكثر بكثير من الذين يكتبون للمسرح (في حين أن المؤلف هو الأصل وهو الذى لابد أن يفهم فى الإخراج والتمثيل أولا) .

المهم أننا بدأنا العمل فى الفرافير وبعد خروج العمل إلى الجمهور بدأت المتاحنات بيننا حول ماكان يجب أن يكون عليه إخراج الفرافير ، وقد انتهت تلك المشاحنات إلى أن عرف كل منا قدر الآخر ، وبدأت المودة .

المضحك أن نصابا مغربيا ادعى بعد عشر سنوات من هذا أنه هو صاحب فكرة المسرح العربي وخالقه ، واسم هذا النصاب هو الطيب الصديقى ، ولا يزال ينصب على العالم العربي بهذا كله ، ولم يتصد له أحد ويذكره ، بأن مايدعيه نصب ، بل نحن هنا فى مصر نردد هذا كالببغاوات وكأننا لا نعرف التاريخ أو نسيناه .

* * *

نعود إلى إيزيس الحكيم وإيزيس مطاوع .

أقول إن إيزيس الحكيم كانت آخر مسرحية يكتبها متأثرا بما رآه من إحياء الأساطير فى باريس ، إذ بعدها تحول إلى المسرح الاجتماعى ، ثم إلى ما أسماه شكلنا المسرحى أوبناءنا المسرحى (بعد ظهور الفرافير والضجة التى قامت حول المسرح المصرى) وكتب على هذا الأساس مسرحية (الصفقة) ثم جاءت موجة اللا معقول فكتب مسرحية (يا طالع الشجرة) ثم جاءت موجة مسرح المقاومة على يد الشرقاوى فكتب مسرحية عن المخابرات .

المهم أن توفيق الحكيم رجل يؤثر (فهو الذى جعلنا نعشق المسرح) وأيضا يتأثر بتلامذته ومحبيه، ولكنه يخفى هذا كله فى جعبيته ولا ينطق عنه حرفا، أما الحكيم الرجل اذا كان بخيلا فالحكيم الكاتب أبخل من البخل وأنه وعمرى ما ضبطته يمتدح عملا حتى لمعاصريه إن لم يكن لتلاميذه، هو يمتدحهم إذا كان الأمر بينه وبينهم، أما كتابة وأما علنا فلا، والآن جاء كرم مطاوع ليقدم إيزيس عام ٨٥

وليقدمها على مسرح جديد تماما، المسرح القومى بعد تجديده.

ودعونا من الخناقات التى حدثت حول تقديم مجنون ليلى كافتتاح، أو حول تقديم إيزيس، فهذه خناقات أصبحت فى ذمة التاريخ.

دعونا ندخل المسرح القومى هذه الليلة لنشاهد افتتاح إيزيس ٨٥ فى حضور رئيس الجمهورية.

وأبدأ فأقول إنى ـ رغم أن الموعد يذكر السادسة والربع ـ كميعاد لبدء العرض، إلا أننى ومنذ الساعة الخامسة، وأنا أطوف بكل شارع يؤدى إلى ميدان العتبة حيث المسرح القومى، ولدهشتى وجدت قوات المرور والأمن المركزى قد (احتلت) منطقة وسط البلد بأسرها، وكأن ثمة مؤامرة من سكان القاهرة لمحاصرة الرئيس واحتجازه، إننى لم أر هذا فى بلد من بلاد العالم أبدا، أن تحتل قوات الجيش (الأمن المركزى) والبوليس كل شوارع وسط المدينة من الساعة الرابعة إلى التاسعة، وكل هذا لأن موكب الرئيس سيمر أو أن ضيفا هاما سيعبر، إن هذا منتهى عدم الثقة فى المواطنين ومنتهى إظهار العضلات للأمن المركزى والشرطة. فالرئيس فى العادة يقابل

بالترحاب حتى من الجماهير المتجمعة فى الشوارع تهتف باسمه ، فما بالهم وهم يعاملون الجمهور، وكأنه سيتلقى موكب الرئيس بالحجارة أو بالرصاص- نحن شعب أكثر رقيا من كل الأجهزة القائـمة على حراسة الرئاسة وغير الرئاسة وفى الحقيقة نحن الذين نحرس الرئيس ، أو بعض الرؤساء ، وليس حراسه الخصوصيين أو العموميين، ولقد صرع المرحوم الرئيس السادات وهو فى قلب حراسته الخاصة محاطا بكم هائل من القوات المسلحة والطائرات المحلقة

لى رجاء إلى السيد وزير الداخلية أن يغير من هذا النظام الذى يربك حياة الناس ويعطل مصالحهم ويزيد السخط فى نفوسهم،فالرئيس المحبوب تحرسه قلوب الشعب ، وما تفعل قوات الأمن والشرطة إلا أن تحول بين هذا الحب وبين أن يصل إلى قلب الرئيس .

وصلت إلى مسرح الأزبكية وفحصتنى كل الأجهزة الالكترونية التى طلعتنى براءة والحمد لله . وكنت قد نسيت تذكرة الدخول . وحمدا لله أن ضباط رئاسة الجمهورية بدا وجهى مألوفا لديهم وإلا لما كنت حضرت العرض الذى أنا مدعو إليه .

دخلت المسرح ، ساحة المسرح الخارجية أصبحت فى منتهى الجمال والتنسيق ، دلفت إلى الصالة فصدمنى المشهد، زخارف كثيرة مذهبة وكأننا فى مسرح مدينة بترولية ، خشبة المسرح وضعها سقيـم ، المسافة بين الخشبة والمقاعد بعيدة أكثر من اللازم ، ومغطاة بطبقات كثيفة من سجاجيد المأتم وحتى ليست موضوعة بترتيب وتنميق ، وإنما هى موضوعة (كلّشنكان) بحيث تعتلى حافة الواحدة الحافة الأخرى فى مشهد لا يبعث أبدا على الاحترام .

المسرح نقص مالا يقل عن المائة كرسى وأصبح فى حجم مسرح الجيب

خرجت إلى الصالة ثم إلى الخارج لأشاهد هذا الذى أنفقوا عليه ملايين الجنيهات ، فإذا بى أجد زخرفة إسلامية ، لا علاقة لها بالزخرفة الإسلامية الحقيقية التى كنا نصنعها منذ أيام أحمد بن طولون ، مساحات رهيبة فارغة تملأ الجدران الخارجية ، وليس بداخلها ما ينم على أن هذا مسرح أو مسجد أو معبد يهودى ، أين صرفت تلك النقود كلها وما رأيته لا يمكن أن يتكلف أكثر من مليون جنيه ـ أريد من السيد رئيس الوزراء والسيد وزير الثقافة أن يشكلا لجنة من كبار أساتذة الهندسة المضمونى الذمة يقدرون حجم الإصلاحات ، وكمّ النقود المنصرف ويحاسب المختلسون فإنى واثق أن هذه العملية قد اختلس منها ما لا يقل عن الثلاثة ملايين جنيه .

* * *

ثم بدأ العرض المسرحى ، وفى ذهنى سؤال : ترى ماذا سيفعل كرم مطاوع بإيزيس الحكيم ، إيزيس الحكيم كانت أسطورة (محترمة) لقصة إيزيس وازوريس وحورس وتيفون ، واغتصاب الملك من أوزوريس وقتله ثم إصرار حورس، .أسطورة بسيطة بساطة الأقاصيص الفرعونية القديمة مثل الفلاح الفصيح وكتاب الموتى ومسرحيات الكهنة .

طبعا من المستحيل أن يخرج كرم مطاوع إيزيس الحكيم بنفس بساطتها إذن أين دوره هو كمخرج ؟ وهكذا أخرج كرم مطاوع النص عن بساطته أولا ، وعن الحكيم ثانيا ، وبهذا فهى فى الحقيقة إيزيس مطاوع ، وحتى

لوكان عدل فيها ـ كما يقول الرواة ـ توفيق الحكيم فهو قد فعل هذا بتنويم مغناطيسى إخراجى من كرم مطاوع .

وهكذا من الأسطورة البسيطة خلق كرم «أوبريت» ملأها بالرقص والغناء المصرى والشامىّ والزار ومجاميع لا حصر لها ، كان على المسرح أحيانا ما يزيد على السبعين ممثلا وممثلة ، وإذا عرفت أن المسرح لم (يكنس) منذ إنشائه وكنت تجلس مثلى فى الصف الأول ، لأدركت مدى ما دخل صدرى من غبار وتراب سببه دبدبة هذه العشرات من الراقصين والراقصات فوق الخشبة المليئة بالتراب وتصاعد هذا التراب على هيئة سحب خانقة تملأ الصالة الصغيرة إلى حد الحلقوم ، أما كان هناك عاقل واحد يفكر قبل العرض فى كنس الخشبة ورشها لتصبح مكانا جديرا بالعرض لتلك العشرات من المجاميع .

باختصار شديد ذهبت أتفرج على توفيق الحكيم فاستولى على عقلى كرم مطاوع بكثرة المجاميع والأغانى والراقصات ، وكأنه أدخل إلى خشبة المسرح فرقة من الأمن المركزى لتحافظ هى الأخرى على حياة الرئيس وكبار المدعوين .

أجل ـ أحالها كرم مطاوع إلى أوبرا ، ولو كان كرم مطاوع فى ظروف نفسية أصلح ، ولو كان لم يشغل وقته ، رغما عنه فى خناقات ما أنزل الله بها من سلطان حول المسرح الذى تعرض فيه مسرحيته ، ولو أضاف قليلا بل لابد أن أقول كثيراً عن الشاعرية ، لا للديكور أو للرقصات ، وإنما للمواقف الإنسانية العميقة التى تحفل بها الأسطورة ، مثل مشهد لقاء إيزيس بابنها

حورس بعد غيبة خمسة عشر عاما ، ولوجعل حورس يتحدث عن أبيه المقتول حديث ابن قتل أبوه ولم يره ، ولم ير استيلاء تيفون على الحكم ولو توقف قليلا عند مشكلة الحكم ، ومن يحكم من ، وهل الحكم للقوة أو للعدل ... و ... و ... كثير من المشاهد التى كانت فى حاجة إلى كتابة درامية حديثة ، ومراجعة متأنية لكل جملة من جمل الحوار ..

لوكان قد فعل هذا لكانت إيزيس أروع عمل إخراجى تم على المسرح المصرى ،ولكن هكذا شاءت العجلة ، وإصلاح المسرح ، والخناقات والظروف النفسية الضاربة أطنابها فى هيئة المسرح بشكل عام وفى وزارة الثقافة بشكل خاص .

ورغم هذا فإيزيس عرض مسرحى رغم كل شىء ـ استمتعت به أنا وغيرى غاية المتعة ، استمتاع المستيقظ لتوه بعد غفوة إغماء طويلة ، لقد عاد المسرح ، لقد عاد ، ها هو يتثاءب ويتمطى ولكن الحياة دبت فيه دبيب أرجل الكومبارس والراقصيين ، عادت الروح ترفرف فى سقف مسرح الأزبكية العتيق ، عدنا نذهب إلى المسرح .

أما أن يحضر الرئيس مبارك هذا الافتتاح ،فتلك لفتة لا أظنها تخفى على أحد ، لقد أراد بها فيما أظن أن يطيب خاطر الفنانين الذين انهالت عليهم الصحافة بالهيروين والكوكايين والانحلال ، وأراد أن يقول أنا مع الفن الجاد (أى مع القطاع العام) وأنا مع العمل الجادحتى لو تكلف « ٣٥٠ ألف جنيه ».

وهذا فى حد ذاته انتصار كبير للعائلة الثقافية المسرحية ، شكرا يا ريس وشكرا أنك اصطحبت السيدة حرمك ، فلى أكثر من خمسين عاما أعيش

على الأرض المصرية وأحضر مسرحيات واحتفالات لم أشهد خلالها رئيس جمهورية جادا يحترم حضور المرأة ويصطحب زوجته لتحضر معه ، وفى نفس اللوج ، عرضا مسرحيا ، إن هذا ما يسمونه التحضر الحقيقى أما المخجل حقا فهو أن عدد المدعوات كان قليلا جدا ، مع أن حدثا كهذا يعتبر فى البلاد المتحضرة عيدا اجتماعيا وفنيا خطيرا تستعد له المهتمات بالفن ــ وما أكثرهن فى مصر ــ استعدادهن لحفل زفاف عزيز

* * *

ولا أستطيع أن أنهى كلمتى قبل أن أقبل صلاح جاهين على أغنيته التى أرشحه معها لأن يبدأ كتابة أوبريتات من تأليفه .

كذلك لا أستطيع أن أنهى كلمتى قبل أن أشيد بسهير المرشدى إشادة خاصة ، فقد نضجت الممثلة الشابة نضوجا جعلها تشرخ قلبى بإحساسها بعد أن كانت تشرخه بصوتها العالى ، الآن هى تؤدى من الداخل ، والداخل يصل مباشرة إلى الداخل . ويعتصره . هنيئا لك بدور العمر هذا ياسهير وأرجو أن يكون بداية ، مجرد بداية ، لمرحلة تجعلنا نغلى بالغضب وبالرضا بالسخط والإشفاق ، بالدموع والضحكات ، وأنت تهمسين ، فقط تهمسين .

مبروك يا أستاذة سميحة أيوب لافتتاح مسرحك .
مبروك ياكرم مطاوع بإيزيسك الصاخبة .
مبروك يا سهير المرشدى على سهيرك الجديدة .

لكي نعيش الحاضر
لابد أن نعرف المستقبل

منذ عام أو أكثر كتبت سلسلة مقالات أحاول أن أشخص فيها سر (عدم خلو البال المصرى) وكان الاستنتاج الأكبر الذى وصلت إليه أن كثيرا من الارتباكات السائدة فى حياتنا ، على المستوى العام وعلى المستوى الفردى ، على مستوى الحكومة ، وعلى مستوى المعارضة ، يكمن فى تخوفنا أو بالأصح عدم تأكدنا من المستقبل ، وقلت فى تلك المقالات إن الإنسان كما أنه كائن له تاريخ وواع بتاريخه هذا، فإن إحدى خصائصه المهمة الخطيرة أنه كائن يعى أيضا أن له مستقبلا ، بل إنه ليعيش الحاضر ، ويعود يستوحى التاريخ ويذاكره خدمة للمستقبل ، لتحديد ذلك المستقبل ونوعه ودوره فيه ، بل حتى أنه لا يعيش الحاضر ، لكل ما قد يبدو أنه مجرد وجود فى الحاضر ، إلا من أجل التمكين لمستقبله .

بمعنى أنه لا يمكن لأمة أن ترتب حياتها على أساس وجودها اليوم فقط وإنما كلها فى الغالب تعمل لدنياها وكأنها ستعيش أبدا ، بينما هى تعمل وكأنها ستموت غدا ، لآخرتها فقط وليس لدنياها .

ولقد أسعدنى أننى لم أكن وحدى الذى فكرت وأفكر فى هذا كله ، ففى حديث الأستاذ محمد حسنين هيكل لجريدة أخبار اليوم ذكر ما أسماه المشروع

القومى العام ، بمعنى أننا صحيح لدينا تعدد أحزاب وحريات ديمقراطية لا بأس بها ، ولكن الأمم لا تقوم بهذا ، وإنما تقوم الأمم ، حكومة ومعارضة وأحزابا ومستقلين وجماهير عادية بهدف قومى عام تسعى لتحقيقه ويشكل بالنسبة لتفكيرها على المستوى الفردى والجماعى ما أسميته «بالمستقبل» والسعى لتصور وتأكيد العمل من أجل هذا المستقبل ، إذا اتفقنا جميعا على تصور واحد ـ وإن يكن مختلفا فى جزئياته وتكتيكاته وطرق الوصول إليه ، إذا اتفقنا على مايمكن أن نصنعه بمستقبلنا (العام) وتبينت لنا خطوطه ولو العريضة جدا لأمكن لكل منا كفرد ، ولكل حزب كحزب ، ولكل جهاز كدولة ، أن يطمئن إلى أنه يسير فى طريق معروف سلفا إلى أين يؤدى ، ونهايته أيضا تكاد تكون معروفة .

وربما من أجل افتقارنا إلى هذا التصور العام لمستقبلنا ، يرتبك حاضرنا ويشتد بنا الارتباك ، ولا نستطيع أن نفرق بين ما هو تكتيكى وما هو استراتيجى ، بين ما هو ملح ، وما يمكن تأجيله ، سؤالا مشروعا تماما ، فنحن مثلا كلنا نعرف أن علينا ديونا ، متى نسددها ، وكيف ، وهل يأتى اليوم الذى نتوقف فيه عن الاقتراض وعن الاعتماد على المعونات أو أنه لن يأتى أبدا .

مشكلة الديون هذه جزئية واحدة من جزئيات رؤيتنا الشاملة إلى المستقبل أو بالتعبير الهيكلى المشروع القومى العام .

ذلك لأنه توجد جزئيات أخرى كثيرة جدا ، فجانب المشاريع الكبرى والطرق والكبارى والخدمات ـ وهى كلها موجهة لخدمة المصريين الذين يحيون اليوم أو على الأكثر فى الغد القريب ، ولكن مصر كدولة ستحيا ربما للآلاف من

السنين المقبلة ، فلنتواضع ولنقل على الأقل للمائة عام المقبلة ، فهل ما نقوم به من خدمات الآن ، وهى جليلة ما فى ذلك شك ، كاف لكى نرى من خلاله مستقبل مصر ، أى مستقبل أولادنا وأحفادنا وكيف يكون .

إننى هنا أؤكد أن كل مشاريع الخدمات فى مصر ـ مهما بلغت ضخامتها ـ لا يمكن أن تطمئن المواطن أو الحزب أو الجهاز على مستقبلنا ، فهى مشاريع لخدمة الحاضر ، ونحن لا يمكن أن نبنى الحاضر على أسس سليمة إلا إذا كنا نرى المستقبل بوضوح تام ، أو على الأقل بشبه وضوح .

ونفعل هذا رغم أن كل الأحداث ، خاصة الأخيرة منها ، تهيب بنا أن قد آن الأوان ليجتمع شمل المصريين حول رؤيا للمستقبل وكيف يكون ، إذ بدون هذا سوف نظل نتخبط ، ونحيا يوما بيوم ، و (طقة) (بطقة) وتظل أفعالنا ليست مبنية على خطة كبرى ننفذها على خطوات ، وإنما مجرد ردود أفعال إما أن نحاول اتهام الآخرين بأنهم وراءها وإما أن نحاول تجاهلها ، وإما أن نتشاغل فى مشكلة فرعية تصبح وكأنها مشكلة الساعة ، ونفعل هذا حكومة ومعارضة .

ولأضرب مثلا ...

فى الأسبوعين الماضيين ناقش مجلس الشعب استجوابا قدمه الأستاذ يس سراج الدين عن (هبوط) مستوى برامج التليفزيون ، وعن حكاية القناة الثالثة ، وعن غياب المعارضة عن الشاشة الصغيرة وميكرفون الإذاعة .

ولسوء الحظ قدم الاستجواب والمعركة مستمرة بين المعارضة والشارع المصرى من جهة وبين مصداقية بعض الأجهزة الحكومية والإعلامية من جهة أخرى ، وكان حريًا بدلا من أن نظل لمدة يومين كاملين ، نستمع إلى آراء ما أنزل

الله بها من سلطان حول القناة الثالثة وماهية المواد التى تقدم فيها ، وحول وصول نجوم المعارضة إلى الشاشة الصغيرة أو حتى الكبيرة كان حريًا أن يتحول مجلس الشعب إلى قاعة لا حزب أغلبية فيها ولا معارضة ، وإنما إلى مؤتمر وطنى كبير يناقش فيه فلسفة إعلامنا بالدرجة الأولى .

فوزارة الإعلام منذ أن تولاها المرحوم صلاح سالم فى أول الثورة إلى أن تولاها الوزير صفوت الشريف ومرّ عليها الدكتور عبد القادر حاتم والمرحوم جمال العطيفى والأستاذ فائق والأستاذ محمد حسن الزيات ، جميعا وإلى الآن ينفذون فلسفة إعلامية واحدة ، تلك التى تمنح أو تمنع الأخبار حسب ما تراه الدولة ومصلحتها ، وحسب ما يشتمّون من اتجاهات رئيس الدولة ، ابتداء من الرئيس جمال عبد الناصر إلى الرئيس حسنى مبارك .

حدثت تغيرات كثيرة فى الأربعة والثلاثين عاما الماضية ، ولكن بقيت فلسفة الإعلام المصرى كما هى لم تتغير ، لا لعيب فى هذا الوزير أو ذاك ولا لأن هذا أكثر تبحرا فى العلوم الإعلامية من ذاك ، وإنما لأن التوجيه واحد والتوجه واحد .

وكان حريًا بنا ، وبالذات منذ أن تولى الرئيس مبارك الحكم ، وأصبح تعدد الأحزاب واقعا ملموسا وأصبحت صحف المعارضة تنشر كل ما يعنّ لها وما لا تستطيع حتى أن تغذيه المحطات الأجنبية ، كان حريًا بنا أن نبدأ نفكر فى فلسفة جديدة للإعلام القومى « أو الحكومى إن شئت » ، فلسفة جديدة لأن الخبر الذى لا تنشره (الصحف القومية) تنشره صحف المعارضة بأعرض بنط ويحتل مساحة من اهتمام الرأى العام أكثر بكثير مما لو كانت الصحف القومية قد

نشرته بكل الحقيقة والموضوعية ، ذلك لأن الرأى العام يتصور أن مجرد عدم نشره فى الجريدة القومية معناه أن وراء هذا (التعتيم) الإعلامى ماوراءه ، وأن الحقيقة أدهى وأمر ، فى حين أن من الممكن ألا يكون هذا هو الوضع .

ولكنها (الفلسفة) التى تعتبر أن نشر أى خبر فيه مساس بأى جهاز من أجهزة الدولة خطيئة كبرى ، تلك الفلسفة التى تؤدى بالدولة نفسها إلى أن تركب رأسها ولاتستجيب لضغط الجماهير و(تغير)، أو توقف الموظف المتهم أو تأمر بتكوين لجنة لتقصى الحقائق فى قضايا أصبحت محل شك عام ، وكأنها تتصرف باستمرار على أنها حكومة متهمة وعلى أن الاتهام حقيقى، ومن واجبها أن تتستر عليه ، فى حين أن حكومة كالحكومة المصرية مترامية الأطراف فيها الفاسد وفيها الشريف النظيف ، فيها المرتشى وفيها الذى يترفع عن أى هوى ، ومن المحال أن يكون كل موظفيها أوكل أجهزتها يقوم عليها ملائكة لا يخطئون ولا يقترفون أى إثم .

كان مفروضا أن تتحول قاعة مجلس الشعب ، لا إلى مبارزة (راديفير) بين المعارضة والحكومة ، ولكن إلى مؤتمر قومى عام ، يناقش بهدوء شديد وبكلمات معدة ، وبمعلومات (فلسفة) الإعلام الذى تسيطر عليه الدولة سواء أكان إذاعة أم صحافة أوتليفزيونا تجاه أوضاعنا الجديدة فى ظل التعدد الحزبى والإعلامى ، فالخطأ ليس خطأ الشريف أو رئيسة التليفزيون أو رئيس الإذاعة ، الخطأ خطأ الفلسفة التى قام بها وعليها الجهاز ، والذى تغيرت العصور وتراكمت الطبقات الجيولوجية بعضها فوق بعض من حكم اشتراكى شامل إلى منابر ، إلى حزبية وتعدد ، من مصر كلها قطاع عام ، إلى مصر وقد أصبح

قطاعها الخاص هو الغالب . من مصر لا تستورد، وإنما تنتج من الإبرة إلى الصاروخ إلى مصر تستورد الإبر والمسامير وتستعير من أمريكا الصواريخ ، أيمكن أن يحدث هذا كله ويظل الإعلام هو الإعلام ، وتظل فلسفته هى نفس الفلسفة ؟ ! .

مستحيل .

ولا يزال الأمر أيضا مستحيلا .

فلابد من تغيير فلسفة إعلامنا لتتلاءم مع أوضاعنا الجديدة ويصبح الوزير أو المسئول الذى يخرج على تلك الفلسفة هو المخطئ وهو الواجب محاسبته ، أما الآن فالحساب لابد أن يكون للفلسفة التى يحكم على أساسها الوزير والتقاليد التى جرت عليها أجهزة الإعلام منذ قيام الوزارة الأولى إلى الآن .

هذه الفلسفة الإعلامية الجديدة لا يمكن أن تتشكل هى الأخرى وتتبلور إلا فى ظل رؤيا واضحة للمستقبل أو هدف عظيم نحلم به للمستقبل أو للمشروع القومى العام ، إذ أن تحديد ذلك الهدف ، وتحديد إلى أين نحن سائرون سيحدد لنا بالضرورة والتأكيد كيف نسير الآن وكيف نمضى ، ليس فقط فى أجهزة إعلامنا ، ولكن فى قطاعنا العام ، فى تسليحنا ، فى ديوننا وكيف نسددها أوكيف نشترك مع الآخرين المديونين ونكون ـ على غرار دول عدم الانحياز ـ ما أسميته فى مفكرة سابقة منظمة الدول المديونية أو اختصارا (م . د . م) ...

أخذنا مثلا من الإعلام ، والآن نأخذ مثلا آخر ، وياله من مثال عجيب فبعيدا عن الأمثلة الحساسة الأخرى التى تساقطت فوق رءوسنا طوال الأشهر

الثلاثة الماضية ، لنأخذ مثلا قريبا جدا ، حكاية الصيادلة والصيدليات ...
كانت مصلحة الضرائب تحاسب الصيادلة بخصم ٢٪ من ثمن الدواء من المنبع والمنبع كان كله ـ إلا فيما ندر ـ شركات قطاع عام تنتج الأدوية وشركات استثمار مشتركة ، وكانت جميع تلك الشركات تورد ما تحصل عليه من ضرائب إلى وزارة الخزانة .

ظل هذا يحدث منذ سنة ١٩٧١ إلى هذا العام ، حين قرر فجأة الدكتور صلاح حامد إلغاء هذا النظام ، واتباع نظام مأمورى الضرائب الذين يذهبون لكل صيدلية ويفتشون على مبيعاتها ويقدرون ـ جزافا بالطبع ـ فليس معقولا أن يرابط فى كل أجزخانة مأمور ضرائب ليل نهار لحصر ما تبيعه الصيدلية من أدوية ، وما ينتج عن هذا البيع من أرباح . يعنى أولا هو نظام غير قابل للتنفيذ العملى إلا لو عينّا مائة ألف مأمور ضرائب خصيصا للأجزاخانات ، وثانيا ليس من المعقول أن يظل نظام ساريا لمدة خمسة عشر عاما ثم يعنّ لوزير المالية أن يصدر قرارا يغيّر به النظام فجأة فيربك الدنيا كلها ، وأول من يربك هم الصيادلة ، وإذا بالصيادلة المرتبكين بهذه الكارثة التى تتهددهم بالتقدير الجزافى ، يجتمعون ويقررون العمل ثمانى ساعات فقط فى اليوم وإغلاق الصيدليات من الساعة السادسة مساء .. بينما عيادات الأطباء تبدأ عملها فى السادسة مساء، وكل مريض يخرج من عند الطبيب بروشتة يريد صرفها فإذا بالأجزاخانات كلها مغلقة ، والمفتوح فقط هو الأجزخانات الليلية ، وهى الأخرى فارغة تقريبا من كل الأدوية الهامة التى يحتاجها المريض خاصة فى الحالات الجادة

وفى مدينة كالقاهرة مقدارها عشرة ملايين نسمة لا تفتح فيها ليلا إلا أقل

من سبع أجزاخانات متباعدة تباعد الزهرة عن المشترى .

أبعد هذا ارتباك فى التخطيط والتنفيذ ؟

ألا يدل هذا على أن الوزراء مشغولو البال بطريقة لا تتيح لهم التفكير العلمى لحل المشاكل .

أنا أفهم أن يعتقد وزير المالية أن التقديرات الحالية للضرائب على الأدوية غير كافية ، وأنه لابد من رفعها . وهذا حقه ، ولكن الذى ليس من حقه أبدا هو أن يصدر قرارا من جانبه وحده بهذا النظام ، كان لابد من دراسة الموضوع من جميع نواحيه والاتفاق مع نقابة الصيادلة وإيجاد حل عادل للمشلكة .

أما هذه القرارات غير المدروسة فقد أدت إلى مأساة لم يكن ضحيتها الوزير ولا الصيدلى ولكن كان ضحيتها آلاف المرضى المساكين الذين يجوبون القاهرة من أقصاها إلى أقصاها بحثا عن دواء ربو ناقص أو دواء مسكن لمغص مروع وأغلبهم من الفقراء الذين لا يملكون ما يستطيعون أن يدخلوا به مستشفى من مستشفيات الانفتاح وقضاء ليلة تكلفهم فوق المائة جنيه من أجل الحصول على الدواء ، أما مسألة صيدليات المستشفيات العامة الحكومية فقلبى مع الصديق الكبير الدكتور حلمى الحديدى الذى وجد نفسه ـ هو المسئول عن صحة الشعب ودوائه ـ بين مطرقة الدكتور صلاح حامد وسندان إخواننا الصيادلة الذين فأجأتهم مطرقته ، ولم يكن أمامهم من خيار إلا بأن يستغيثوا بالرأى العام ويالها من استغاثة ضحيتها هم المرضى المساكين .

موضوع الضرائب هذا سواء على الصيادلة أو الأطباء ، أو المحامين أو غيرهم

ذلك الموضوع الذى يصرخ منه الجميع ماعدا تجار المخدرات الذين يربحون الملايين .

مواضيع خطيرة جدا كهذه تتعلق بصحة المواطنين ، ومدى الترابط القومى بين فئات الشعب ومدى رضا الشعب عن حكومته ، حكومة تتخذ فيها القرارات هكذا عشوائية ، كالقرارات الاقتصادية ، مع أنها كلها لابد أن تدخل فى صميم رؤيا الحاضر على ضوء المستقبل ، ورؤيا المستقبل على ضوء الحاضر ، والتجهيز للحاضر والمستقبل بدراسات سريعة عاجلة تأخذ فى الاعتبار كافة الأطراف وتتبين كافة المحاذير .

واذا كانت القرارات الاقتصادية العشوائية قد أضرت ببعض تجار العملة وبعض ملاّك الدولار .

فالقرارات الضريبية العشوائية تضر ملايين المواطنين الفقراء الذين يئنّون حتى مطلع الصباح .

أنى أرجو من السيد وزير الصحة أن يسارع فورا إلى التوسط بين نقابة الصيادلة ووزير المالية لإنهاء هذا الوضع الذى تجأر منه الجماهير ـ لقد رأيت بعينى أكثر من مائة وخمسين مريضا أمام صيدلية الاسعاف وحدها وبعضهم فى حالة من الإعياء لا يمكن أن يتحمل الإنسان أن يرى حيوانا يعانى منها .

أرجو أن يفصل هذا ويفض المشكلة ، فالموضوع أخطر بكثير مما يتصور الجالسون على كراسى الوزراء ، والشعب قد بلغ به التعب الزبى فلا تتركوا له حتى حق الدواء ؟ !

غير أن الحديث عن المستقبل لم ينته بعد ـ فهو موضوع حياتنا اليوم وغدا ، حياتنا أو موتنا .

حتما سأكتب قصتها

أريد أن أكتب قصة .. قصتها .. حديثة جدا وقريبة جدا فقد وقعت أحداثها خلال أيام قليلة مضت ، عرفناها وشاهدناها وأثقلت قلوبنا جميعا بهمّ من الصعب أن يزول ..

قصة حديثة لأنى كففت عن قراءة القصص التى تبدأ بكانت الرياح تزوم ، والقمر محاقا ، والدنيا بين صيف وشتاء .. كففت عن قراءة قصص تحدثنى عن إنسان يشكو الظلم أو الوحدة أو انعدام الهدف ..

كففت عن قراءة قصص الخيال الطفولية ، وكأنما تكتب من أطفال ليقرأها أطفال .. كففت لأن مايدور بنا وأمامنا ونعيشه أصبح أكثر فاعلية بكثير من أى خيال ، ومن أى رعب مصطنع ، ومن أية كوارث قرأنا عنها فى التاريخ ..

ماذا يكون شعر الخنساء ، أو تكون تراجيديا (أوديب) أو (هاملت) الذى يتأرجح بين أن يكون أو لا يكون ؟ ! كل ماكتبته البشرية بخيالها وتجاربها لايقارن بما يحدث أمامنا فى واقعنا الآن ، بل وعلى الساحة من حولنا وفى العالم ..

فهى قصة أبطالها رؤساء دول ، وفتيان عرب ، وقنابل وطائرات مخطوفة ،

وسفن مأسورة ، وبنات شجعان ، ورجال حبسوا فماتوا ، مخنوقين بجبنهم قصص بطولات ، وعبث أخرق مجنون ، ورجال تعصف الأوضاع بأفئدتهم وعقولهم ، ورؤساء عرب عناتيل محتمين فى جحورهم المحروسة بالدبابات والمحاطون بالمرتزقة ، وهم بكل إجرام وجبن يصدرون الأوامر بالاغتيال والاقتتال . قصة دولة عنصرية قامت على المذابح وبالمذابح ، وتعيش بالترويع ، ودولة كبرى فى مساحتها وثروتها ، صغرى إلى أدنى حدود الصغار فى سلوكها وقيمها ، قصة عالم عربى جاءته أعظم رسالات من السماء فأصبح بها ذات يوم أعظم الشعوب ، ثم تفجر له من باطن الأرض شيطان أسود يحاول أن ينهش رسالته العظيمة ويلتهم إنسانيته ولايبقى له سوى نفس مريضة أمارة بالسوء والجشع واجتثاث الضمير .

أريد أن أكتب قصة .. قصتها ..

ولكنها ليست قصة مجردة حدثت من فراغ وفى فراغ .

إنها قصة حدثت ودارت فى قلب وخلفية الجحيم الذى نحياه ..

وأبطالها كلهم وكأنما يساقون إلى مصيرهم وحتفهم بقدر لايستطيعون منعه أو دفعه أو حتى تحويل مساره .

* * *

ثلاثة فتية عرب ..

أحدهم ولد ـ حيث يقول ـ فى قرية يحتسى فيها أبوه زيت الزيتون كل صباح ليكتسب الصحة والقدرة وطول العمر والبقاء ، ومات هو ، الفتى

مجندلا فى طائرة مصرية ، كان ينوى أن يقتل ـ وقتل ـ كل ركابها الذين لاذنب لهم ولا حول إلا أنهم ركاب طائرة مصرية .

وزميلاه اللذان قابلاه فى أثينا ، لأول مرة يلتقى الثلاثة ، عربا كنا ونبقى عربا ، لايعرف بعضهم البعض ، بل حتى لايعرفون مهمتهم ، وإنما بكل براءة وسذاجة وضياع ، تلقوا الأمر من قائد خسيس : لكى ينقذوا فلسطين والقضية .. لكى تكونوا أبطالا خذوا هذه المسدسات والقنابل واخطفوا طائرة العدو المصرى اللدود ، ونفذوا التعليمات ..

لم يتوقف أحدهما ليناقش ماعلاقة إنقاذ فلسطين ، بقتل ركاب مدنيين أبرياء ، وهل الطائرة المصرية التى تقل فلاحين مصريين وركابا أجانب ، هى طائرة معادية مثل التى تخرق حاجز الصوت فوق بيروت كل يوم ، وتدك البقاع دكاً دكاً ، وتمسح قرى ومدن الجنوب اللبنانى بلا أى ذرة رحمة أو هوادة ..

أبدا .. لم يتوقف أحدهما ليناقش نفسه ، أو قائده .. فهو شاب عربى يريد الخلاص .. وقد أقنعوه أن الخلاص فى اقتناع قيادته ، وثقته فى تلك القيادة لاحد لها ..

فإذا كان قد تشكك أو تردد فإنهم كانوا يقالون له : وهل كان الفلسطينيون فى دير ياسين وكفر قاسم وصبرا وشتيلة من العسكريين أم كانوا من الأطفال والنساء المبقورات البطون البارزات الأشلاء والأجنة ..

إننا نحارب إرهابا بارهاب ، وأعداؤنا إرهابيون سابقون ، وهكذا يجب أن نكون لنهزمهم ، وننتصر ، ونستردّ الأرض والعرض ، غافلين عن الحقيقة التى يرددها دهاة الصهيونية أنفسهم من أن أخطر شىء على الإنسان أن يتبنى منطق

عدوه . ومادام منطق عدوه هو الإبادة والذبح والإرهاب فهكذا لابد أن نرد ناسين أن العدو هو الذى يريد بالضبط هذا ، فكيانه قائم على الإرهاب ويموت الكيان لو توقف الإرهاب ، ولكى يرهب عليه أن يعتمد على بعض الحوادث الإرهابية التى نقوم بها نحوه ، ولهذا فمن مصلحته القصوى أن يستمر إرهابنا الصغير نحوه ليسدر فى إرهابه الكبير هو.. ولكن .

• ولكن تلك طائرة مصرية وركابها معظمهم عرب ... و...

فيجيب القائد الحكيم الخطير : إن مصر تقود القضية للسلام ، والسلام ضدنا ، السلام على طريقة عرفات ومبارك وحسين وصدام و ٢٤٢ ، ٣٣٨ ، انه نفس الطريق إلى الكامب ، وإلى الخيانة فأذبحوا الركاب ذبحا فنحن نريد قطع هذا الطريق ، فلو نجحوا لضاعت القضية ، ضاعت القضية ، أترضون هذا ؟!

وبالطبع لا يرضون ، وأمرك ياسيدى ، هات البنادق والقنابل وإلى اللقاء المرتقب فى أثينا .. البطل المجهول الثانى ، يونانى أرزق ، عرضوا عليه كذا ألفا لقاء أن يحمل لفافة من طائرة عربية إلى طائرة عربية أخرى رابضة بجوارها تماما ..

• يونانى كادح ، ماذا يهمه هو ، أن تنتقل لفافة مهما كانت محتوياتها ، من عربى إلى عربى ، أو حتى من يهودى الموساد إلى عربى طالما سيقبض مبلغا من المال يضمن له العيش المريح لعدة سنين ، ولو علم أن بالطائرة ثلاث عشر يونانيا سيدفعون بأرواحهم وبأطفالهم ثمن هذه السنوات المريحة ، ربما كان قد تردد

ولكن مثلما الحب يعمى ويصم ، فالمال ، أيضا يعمى ، خاصة الضمائر ويصمها .

وهكذا ترتحل الطائرة ، حاملة فى جعبتها كل متناقضات العالم العربى والعالم عامة ، عربا وإسرائيليين وأمريكان ، ويونانيين ، وحتى فلبينيين وخادمات فلبينيات ، لتكمل المأساة ..

وهكذا تتحول القضية العربية والفلسطينية من مقالات يدبجها إخواننا الكتاب والمفكرون العرب ، مقالات تستهلك مئات الملايين من الكلمات ، وآلاف التحليلات والتصورات ، ومئات الخطب والتصريحات ، تتحول وتصبح كائنات حية ، نفذت كل هذه المجارى من الكتابات والتصورات إلى كياناتها الداخلية ، وأصبحت الخطب بشرا ، وأصبح الاستنكار قنبلة ومسدسا ، وأصبحت القضية من كفاح رهيب فى سبيل الحق والعدل والحرية إلى أبشع قيم مما قد يحفل بها قلب بشر ، ألا وهى أن نأخذ الشخص البرىء بذنب المسىء وأن يواجه الأعزل ويقتله بالسلام فى وجهه وأمام عينيه . لايصبح فى قلب أى إنسان ذرة من بطولة أو شهامة أو إنسانية إنما هى الكراهية العمياء فى أحط صورها ، إنما هى الكائن البشرى حين يتحول إلى الإجرام وسيلة لحل قضية مقدسة .

فى غمضة عين كانت الطائرة مخطوفة ..

وكان الأبطال المغاوير الثلاثة قد سيطروا على الموقف تماما وألقوا أبشع أنواع الرعب فى قلوب الركاب ، وحتى فى قلب موظفى الأمن ، فما بالك بقائد الطائرة الذى يحس بالمسئولية الأكبر والأضخم ..

أمن السهل على أى انسان أن يجلس إلى هذا المكتب ، بعيدا عن المكان والأزمان ، مستريح الخاطر إلى أنه فى أمان تام ، ويتحدث عن هذا الذى حدث داخل الطائرة؟. مستحيل ..

إن أى رفة جناح لطائرة عادية ، أو أى مطب هوائى تصادفه يسقط قلوب ركابها جميعا ، مهما بلغت شجاعتهم ، فما بالك والأمر أمر اختطاف ، أمر حيوانات بشرية عمياء ، فى أيديها أسلحة فتاكة ، استولت على الركاب والطائرة والمصير ، والمصير والطائرة والركاب معلقون بين السماء والأرض ..

أن البشر لا يتصرفون بنفس الطريقة فى كل المواقف ، فالموقف المباغت خاصة لو كان يتهدد صميم حياة الشخص يجعله يتصرف بطريقة لا علاقة لها بتصرفاته العادية أو حتى صفاته ، فالشجاع قد ينقلب جبانا ، والخائف يتحول إلى جبان أخرق ، ومن الإنسان العادى قد يولد بطل ، ومن المفروض أنه بطل يتمخض الأمر عن فأر صغير مذعور .

وهكذا فهناك فارق هائل بين الصورة ـ ونحن نستعيدها الآن ، بعيدا تماما عن حدوثها ـ وبين الصورة لحظة حدوثها ..

فجأة .. شل تفكير الجميع .. الوحيدون الذين أصبحوا يفكرون هم السفاحون الذين اعتلوا الطائرة وسيطروا عليها ، بل أعتقد أن هؤلاء الآخرين كانوا يعانون فى داخلهم رعبا قاتلا ..

وهنا ، وفى مثل هذا الجو تتجلى بطولة رجل الأمن المصرى : مدحت فأمامه ثلاثة قنابل يدوية مصوبة إليه وإلى الركاب .. وثلاث فوهات مسدسات ، ومع هذا قرر أن يؤدى واجبه ، وما دام واجبه أن يقاوم الإرهاب ،

فليضرب وليتظاهر بإخراج جواز سفره ، ويخرج مسدسا ، معدّا ، يردى به قائد العملية بثلاث طلقات مفاجئة مصوبة بعناية

ولكن زملاءه كان لهم تصرف آخر ، فقد آثروا الاستسلام وألقوا بمسدساتهم أرضا ، هكذا دفعتهم حلاوة الروح والرغبة فى النجاة بالنفس أليس من سخرية القدر ، وحكمة المولى ، أن الذى تصرف بشجاعة وأدى واجبه هو الذى يعيش الآن ، بينما هلك زميلاه اللذان آثرا السلامة والاستسلام

إنها ليست سخرية أقدار ، إنها قانون الحياة ، فالبقاء دائما للأشجع ، والحرص على الحياة هو بالشجاعة وليس باستهزاء واستكانة وأكل العيش بالجبن يطيل العمر ، كان خالد بن الوليد رضى الله عنه أشجع فرسان العرب ، ولهذا لم يمت أبدا فى حرب فقد كان يدخلها فيهزم عدوه ، ويعيش ويموت العدو ..

أما قائد الطائرة فأعتقد أن مسئوليته كبرى عن الفاجعة التى حدثت فنى حالة كتلك هو مسئول فيها عن مائة إنسان ، كان عليه حتى لوكان أشجع الشجعان أن يطيع أمر هؤلاء المجرمين تماما ، فإذا أنت قررت أن تقوم بمهمة كالتى كلفوا بها ، ووضعت رأسك على كفك ، ونويت ، إذا حانت اللحظة أن تفجر الطائرة وأنت فيها ، فمن أبسط مبادئ الذكاء أن تطيع إنسانا كهذا طاعة عمياء لأنه يكون فى حالة نفسية مستعدا فيها لكى يقامر بأى شىء وبكل شىء ..

ولهذا كان قرار الكابتن أن يراوغ ويفرغ بنزين الطائرة ويفرغ إطاراتها من الهواء ، كان فى رأيي قرارا خاطئا لأنه عرض حياة الركاب للخطر أكثر ، فمعنى هذا أنه حدد قدرة التهوية ، وقدرة الطيران ، أى كسح نفسه وطائرته وأرقدها فوق مطار فاليتا لا حول لها ولا قوة ..

وقد فسر هو هذا بقوله أنه كان خائفا أن يرغمه المختطفون على التوجه إلى ليبيا حيث يفجرون الطائرة ، وهو تفسير قاصر فليس من المعقول ـ إذا كان المتهم هو ليبيا ـ أن تقبل تفجير طائرة على أرضها ، فمن باب أولى أن يفجرها المختطفون فى مالطة ، إذا كانت فى نيتهم التفجير ، العكس هو الصحيح ، لقد كان من مصلحته ومصلحة الركاب والطائرة أن يتوجهوا جميعا إلى طرابلس حيث تصبح المسئولية مسئولية ليبيا بدلا مما هو حادث الآن من أن الدوائر الإعلامية العالمية تحمل مصر المسئولية عن مأساة الطائرة ..

ومن رأيي أن الكابتن أصيب بحالة من الارتباك أدت إلى هذا التفكير الخطأ ، وأنا من مجلسى فوق مكتبي هذا ـ لا ألومه ولست أعرف كيف كنت ولا كيف كان غيرى يتصرف إن وضع فى هذا الموقف ؟ !

الخطأ الأكبر الثانى الذى ارتكبه الكابتن هو مطالبته التدخل بقوات من خارج الطائرة تنقذ الموقف ، وإلحاحه فى هذا بطريقة تدل على أنه كان يعانى شبه انهيار لا منقذ له منه الا بقوة خارجية ،مع أنه يعلم تماما أن أى تدخل خارجى سيكون على حساب ركابه وعلى حسابه هو شخصيا . وقد تبع هذا الخطأ وكنتيجة له ، سلسلة من الاخطاء ، فى سبيل التحريض على التدخل بالغ القائد فى صورة الوضع داخل الطائرة بحيث أن المعلومات التى ذكرها دفعت القيادة ـ العسكرية فى مصر إلى سوء تقدير الموقف ، وكان القرار بالتدخل ..

وهناك طرق علمية للتدخل ، منها إدخال الغازات المخدرة .. ومحاصرة الطائرة إلى درجة إنهاك مختطفيها حتى لو كانوا يقتلون أحد الركاب بين الحين

والحين ، أما الهجوم بفرقة صاعقة ، ما أشجع أبطالها هم الآخرون وهم يواجهون خطرا لا يعرفون كنه ، ولكنهم خضر العود والتجربة والإعداد بحيث هجموا على الطائرة.وكأنهم قوة أمن مركزى فى طريقها إلى فض مظاهرة بالتفجير وقنابل الدخان ، والاقتحام بالقوة وحدها ، واقتحام قلعة محصنة ، يسيطر عليها مسلحون سوف يكون ضحيته بلا أدنى شك الرهائن الأبرياء

وبقيت بعد هذه القصة التى أريد أن أكتبها :

قصة شادية ..

كبيرة المضيفات ..

تلك التى أطلقوا سراحها لتبلغ رسالة إلى المطار ثم تعود إلى الطائرة .. وأريد أن أسأل كم امرأة أو فتاة ، لا فى مصر والبلاد العربية وحدها ولكن فى العالم كله .. تقبل ، أن تنفذ بجلدها من حصار الخاطفين والاحتمال شبه الأكيد للموت والقتل ، تقبل ، بعد أن تصل إلى مبنى المطار فى سلام أن تقرر وبمطلق إرادتها ، بقرار لا رجعة فيه أن تعود إلى حيث الرعب والموت ؟!!

إنه موقف يفوق فى رأيى بطولة الفتيات والرجال الذين يقبلون أن يلغموا أنفسهم ليفجروا معسكرات وقوات العدو .. ذلك أن هؤلاء الفتيات والرجال مناضلون تربوا تربية ثورية نضالية بحيث يعتبر عمل كهذا من قبيل المهمات القتالية الثورية ..

أما شادية ، فلم تكن مقاتلة ، ولم تكن ثورية ، ولم تكن منضمة إلى حزب أو حركة ، ولم تكن فدائية ، كانت فتاة عادية جدا ، تعمل مضيفة ، وقد جاء علينا حين من الدهر كنا نعتبر أن الفتاة التى تقبل العمل كمضيفة ، فتاة تهوى

السفر والمغامرات الشخصية ، وهاهى واحدة ممن كنا نعتقد فيهن هذا تتبدى لها فى لحظة الواجب شخصية الفتاة والمرأة المصرية التى فى لحظات الخطر تصبح أكثر تماسكا حتى من الرجل ، وتقبل التحدى ، وتعود بقدميها إلى حيث ينتظرها الموت المحقق ، وقد فعلت .. بمنتهى البساطة ، ودون تردد ، دون ارتعاشة لجفن ، أو دمعة تسيل ، دون أن يتداعى إلى ذهنها ، موقف بناتنا فى أفلامنا السينمائية ومسرحياتنا اللاتى يرتعشن من رؤية صرصار ، .. و .. (يفقعن) بالصوت لدى شكهن فى وجود لص ..

هاهى فتاة مصرية عربية حقيقة ، عروس تستعد للزفاف ، ناضجة وليست مراهقة فى السادسة عشرة أو العشرين إذ هى فى الثالثة والثلاثين ، تقبل بمطلق إرادتها أن تذهب إلى الجحيم القابع على أرض المطار دون وجل أو تردد ..

لماذا فعلت هذا ؟!

إنه الإحساس بالواجب ، وبكلمة الشرف ، وبالوعد الذى قطعته وخجلها أن تنقضه ، نفس هذه الأحاسيس التى هربت من بعض موظفى الأمن فى لحظة الجد ، فاستحالوا إلى أداة لمساعدة الخاطفين ، وجر الجرحى ، وإلقائهم من الطائرة .. يا لعار بعض الرجال ! ! !

ويا لشجاعة بعض النساء ! ! !

فالشجاعة ليست رجلا وامرأة . الشجاعة إنسان ، رجل أو امرأة ، يحس بواجبه ، ولا يتردد فى فعله ...

سأكتب قصتها وليتنى أملك ساعتها شجاعتها ، لأؤدى واجبى ككاتب تجاه فتاة ضربت مدينتها السويس فأبت أن تغادرها وهى بعد لا تزال صبية

وأدت واجبها تجاه الوطن إلى آخر لحظة فى حياتها . وإن هى إلاّ مثل واحد أضربه لمن لا يزالون يعتبرون المرأة حرمة وعورة وخطيئة وعيبا . من المحتم أن تحتجز ، كالعار فى الحرملكات والمنازل ، وتقوم حولها الأسوار لأنها (بطبيعتها ! !) ميالة للتبذل والتبرج وإشاعة الفتنة فى عالم الرجال .. ماذا تقولون عن هذه المرأة التى أشاعت (البطولة) فى عالم رجالى معظمه تصرف برعونة وتخاذل وجبن ؟! !

من بين أزيز الرصاص وقنابل دخان الحرائق واستغاثات البشر واختناقات الأطفال والجثث المكومة . الجثة فوقها جثة ، وحياة بأكملها وأسرها فوق حياة ، ومأساة فوق مأساة ، تتبدى لنا القضية العربية فى صورتها الحقيقية تماما فهى لم تعد قضية نظرية ومطالبات استقلال أو وطن ، و إنما نجح أعداؤنا بالخارج وأعوانهم فى الداخل فى أن يقلبوها سرطانا داخليا يتمدد فى داخل كل مواطن عربى على حدة ، يقلبوها حربا على أنفسنا من أنفسنا ، وإهدارا لكل قيمة عليا فى شبابنا فلم يعد الفلسطينى فلسطينيا والعربى عربيا ، ولكنه أصبح فلسطينى أبى نضال أبى عمار، وعربيا مشرقيا وعربيا مغربيا ، ومصريا منبوذا ومخابرات وحرب مخابرات جبانة ورعديدة وطعنا فى الظلام ، وجهنم أقامها العرب من أجل العرب وبالذات من أجل مصر المصريين . من أجل (ثورة مصر) أى ثورة لمصر تقتل المصريين والعرب وتبيد الفلسطيبيين، أى تورة عربية أو حركة أمل أو دروز أو شيعة تحولت إلى عصابات وقطاع الطرق . بأخس الوسائل تتقاتل وتنسف ونبيد بلا أى عقل أو صواب أو تمييز .

واذا لم تصدقوا فشاهدوا معى صورة الجثث مرة أخرى وصور حطام

الطائرة . وصور الهول الذى قام به العرب ، خرّب العدو فى الداخل والخارج نفوسهم ، شاهدوا ذلك الحطام من الصلب والبشر والأشلاء

شاهدوا أم شادية بملابسها البيضاء . ى المطار وهى تقول أنا أم البطلة وشاهدوا مدحت فى مرقده بالمستشفى راقدا رقدة أسد نهشته مجموعة فئران مذعورة قامت بأحط عمل جبان فى التاريخ .

شاهدوا كل ذلك لتدركوا ما آلت إليه القضية

ولتدركوا أيضا أنه ، رغم كل شىء ، ورغم المأساة ، ففينا بطلات من النساء وأبطال من الرجال ، بل وفينا القدرة الكاملة على أن نحارب وننتصر أما الإرهاب فلا ، فالإرهاب بضاعة إسرائيل وعدتها .. والحرب الشجاعة وجها لوجه هى عدتنا .

شاهدوا حطام القضية ، وتذكروا جيدا ذلك الحطام .

وهنيئا لك يا إسرائيل .. وهنيئا لك يا مستر ريجان الذى بدأت القرصنة وتؤمن بها ..

وهنيئا لك يا « أبو » كذا و « أبو » كذا وابن كذا وابن كذا ..
أما أنت يا مصر ..
أما أنتم أيها الفلسطينيون الأحرار ..
أما أنتم أيها الأبرياء الذين راحو ضحية لا حول لها ..
فلكم العزاء ..
فالله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ..

وما حادث مصرع ٢٥٠ جنديا أمريكيا يحرسون اسرائيل في سينا ، ببعيد ..
اللهم لا شماتة ، ولكن أيها الناس ، هناك عدالة إلهية على الأرض ..
أقسم أن هناك عدالة إلهية على الأرض مع عدالة السماء .

فهرس

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

رقم الايداع ٠ ٨٧/٢١٦٠
الترقيم الدولى . ٠ ـ ٠٧٩ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

قالت الشائعات إن فترة المرض حولت فناننا الكبير إلى متصوف يرى الله في داخله، ثم جاءت كتاباتك الأخيرة شبه مؤكدة لهذه الشائعات، فماذا عن رد هذه «التهمة»؟!

ضحك وهو يقول: هذه تهمة لا أنفيها وشرف لا أدعيه، فالذي لا يرى الله في داخله، ليس هو فقط غير متصوف أو غير مؤمن.. ولكنه غير إنسان بالمرة.. ولست من أولئك الذين يحبون أن يتحدثوا عما يؤمنون به.. فأنا في داخلي معمل إيمان لا يتوقف عن البحث والتنقيب.. والتجريب والرفض.. والعدول والقبول.. معمل هذا غير ملتزم بإصدار نشرة دورية عن «أحدث» ما وصل إليه!.

يوسف إدريس